مطبوعات أخبار اليوم
قطاع الثقافة

رمضان والصيام

الشيخ محمد الغزالى
د. محمد سيد طنطاوى
د. أحمد عمر هاشم

Bibliotheca Alexandrina
0698157

رمضان والصيام

الشيخ محمد الغزالى
د. محمد سيد طنطاوى
د. أحمد عمر هاشم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ
عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾

أخبار اليوم

الغلاف بريشة : سيد عبدالفتاح

بسم الله الرحمن الرحيم

الصيام عبادة هدفها الأكبر تحرير ارادة الانسان ، وجعلها تبعا لأوامر الله تعالى ، لا لرغائب النفس ، والإرادة المحررة تعنى الفرق الهائل ، ليس بين الحر والمستعبد ، ولكن بين الانسان والحيوان !!

فالحيوانات تفعل ما تحب وتدع ما يضايقها ، والمسافة بين شهوتها وعزيمتها معدومة . . بل لا عزيمة هناك . . ولا صراع بين شهوات وواجبات . .

أما الانسان عندما يتغلب رشده ، فإن عقله يكون حاكما لرغائبه ، وإلا فهو الى الحيوانات أدنى . .

والصيام عن الشهوات ليس فارقا بين الانسان والحيوانات فحسب ، بل هو فارق بين الناجحين من الناس والفاشلين . .

فالنجاح فى كل شيء ، هو قدرة على تحمل الشدائد ، وصبر على الصعاب . وقد شرع الاسلام الصيام للناس كى يمنحهم القدرة على قيادة شهواتهم لا الانقياد لها . .

وهذا الكتاب رحلة مع الصيام ـ ميمونة الغدوات ، مباركة الروحات ـ يقوم بها ثلاثة من كبار العلماء والمفكرين هم : فضيلة العالم الجليل الشيخ محمد الغزالى ، والدكتور محمد سيد طنطاوى مفتى الجمهورية ، والدكتور أحمد عمر هاشم أستاذ مادة الحديث الشريف ونائب رئيس جامعة الأزهر . .

ان العلماء الأجلاء الثلاثة ، وقد عايشوا فى رحلتهم هذه : القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، والسيرة النبوية الشريفة ، عادوا منها ليتحدثوا عنها فى هذا الكتاب . . الذى نقدمه هدية للشهر الفضيل . . وتحية للقارىء الكريم .

[مكتبة أخبار اليوم الاسلامية]

فى ضوء القرآن الكريم :

- □ الصيام لغة .. وشرعا
- □ رخصة .. للمريض والمسافر
- □ أول ما نزل من القرآن
- □ حالة .. من حالات ثلاث
- □ جانب .. من مظاهر الرحمة
- □ من أحكام الصيام
- □ اختلاف .. المطالع
- □ حكمة مشروعية الصيام
- □ الأعذار المبيحة للفطر

يكتب هذا الفصل :

د. محمد سيد طنطاوى

الصيام .. لغة وشرعا ..

فى سورة البقرة آيات كريمة ، تحدثت عن فضيلة الصيام حديثا جامعا حكيما ، وهذه الآيات هى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ
فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ
وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا
فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾
شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ
وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ
فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ
أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ
وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ
دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ

يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ
هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ
أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ
وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ
يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ
أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ
فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

(سورة البقرة)

افتتحت هذه الآيات الكريمة ، بنداء المؤمنين بصفة الايمان ، لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم ، ولحضهم على الاستجابة لما سيكلفون به من أحكام ، لأن من شأن المؤمن الحق ، أن يطيع الله ـ تعالى ـ فى كل ما يأمره به ، وفى كل ما ينهاه عنه .

والمراد هنا بقوله « كُتِب » : الفرضية ، لأن صيام شهر رمضان من أركان الاسلام .

والصيام : مصدر كالقيام . وهو فى اللغة معناه : الامساك وترك التنقل من حال الى حال . فيقال للصمت صوم ، لأنه إمساك عن الكلام ، ومن قوله ـ تعالى ـ حكاية عن مريم : « إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا » أى : إنى نذرت للرحمن أن أسكت عن الكلام ، فلن أكلم اليوم أحدا من الناس .

أما الصيام فى عرف الشرع : فهو ـ كما يقول الامام الآلوسى ـ : إمساك عن أشياء مخصوصة ، على وجه مخصوص ، فى زمان مخصوص ، ممن هو على صفات مخصوصة .

والتشبيه فى قوله ـ تعالى ـ « كما كتب على الذين من قبلكم » راجع إلى أصل إيجاب الصوم وفرضيته .

أى : أن عبادة الصوم كانت مكتوبة ومفروضة على الأمم السابقة ، ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ ، إذ لم يرد نص صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يبين لنا فيه ، كيف كان صيام الأمم السابقة على الأمة الاسلامية .

وما يدل على أن الصيام كان مفروضا على الأمم السابقة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله ،وقوله ـ تعالى ـ حكاية عن عيسى ـ عليه السلام ـ « قال إنى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياة . . . »

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾

[سورة مريم]

وقيل : إن التشبيه راجع الى وقت الصوم وقدره ، فقد روى عن مجاهد أنه قال : كتب الله ـ تعالى ـ صوم شهر رمضان على كل أمة .

وهذا القول ليس له دليل يعتمد عليه . ولذا قال المحققون من العلماء : المقطوع به أن التشبيه فى الفرضية خاصة ، وسائر الوجوه التى قيلت غير ذلك ، إنما هى مجرد احتمال .

ومن فوائد هذا التشبيه فى قوله - تعالى - « كما كتب على الذين من قبلكم » : الاهتمام بشأن هذه العبادة ، والتنويه بعلو شأنها ، إذ شرعها - سبحانه - للأمة الاسلامية وللأمم السابقة عليها ، وهذا يقتضى وفرة ثوابها ، ودوام صلاحها .

كذلك من فوائده : تسهيل هذه العبادة على المسلمين ، لأن الشىء الشاق تخف حدته على الانسان ، عندما يعلم أن غيره قد أداه من قبله .

والفائدة الثالثة من فوائد هذا التشبيه : إثارة الهمم والعزائم للنهوض بهذه الفريضة ، حتى لا يكون المسلمون مقصرين فى أدائها ، بل يجب عليهم أن يؤدوها بقوة تفوق من سبقهم ، لأن الأمة الاسلامية قد وصفها - سبحانه - بأنها خير أمة أخرجت للناس ، وهذه الخيرية تقتضى منهم النشاط فيما كلفهم الله بأدائه من عبادات .

● ● ●

وقوله - تعالى - : « لعلكم تتقون » : جملة تعليلية ، جىء بها لبيان حكمة مشروعية الصيام . فكأنه - عز وجل - يقول لعباده :

فرضنا عليكم الصيام ، كما فرضناه على الذين من قبلكم ، بسبب أدائكم لهذه الفريضة ، تنالون درجة التقوى والخشية من الله - تعالى - ، وبذلك تكونون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ولاشك أن هذه الفريضة ، ترتفع بالمؤمنين الى أعلى عليين ، متى أدوها بآدابها وشروطها ، ويكفى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد قال فى شأن الصوم : « الصوم جُنّة » . أى : وقاية . إذ فى الصوم وقاية من الوقوع فى المعاصى ، ووقاية من عذاب الآخرة ، ووقاية من العلل والأمراض الناشئة عن الافراط فى تناول الأطعمة والأشربة .

وقوله ـ سبحانه ـ : « أياما معدودات » : أى : معينات بالعد . أو : قليلات ، لأن الشيء القليل يسهل عده فيعد ، أما الشيء الكثير فيصعب عده فيؤخذ جزافا . والمراد بهذه الأيام المعدودات : شهر رمضان عند جمهور العلماء .

قالوا : وتقريره أنه ـ سبحانه ـ : قال أولا كُتب عليكم الصيام ، وهذا محتمل ليوم ويومين ، ثم بينه بقوله تعالى : « اياما معدودات » ، فزال هذا الاحتمال ، ثم بينه بقوله سبحانه : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » .

فعلى هذا التركيب يمكن جعل الأيام المعدودات بعينها شهر رمضان ، واذا أمكن ذلك ـ كما يقول الامام الألوسى ـ فلا وجه لحمله على غيره .

وإنما عبر عن شهر رمضان بقوله « أيام » وهى جمع قلة ، ووصف بمعدودات وهى جمع قلة ـ أيضا ـ ، تهوينا لأمره على المكلفين ، وإشعارا لهم بأن الله ـ تعالى ـ ما فرض عليهم إلا ما هو فى وسعهم وقدرتهم .

وقيل : إن المراد بالأيام المعدودات : غير رمضان . وذكروا أن المراد بها : ثلاثة أيام من كل شهر ، وهى الأيام البيض : الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، مضافا إليها يوم عاشوراء ثم نسخ ذلك بوجوب صيام شهر رمضان .

والمعتمد عند المحققين من العلماء ، هو القول الأول ، لأنه ـ كما قال الامام الفخر الرازى ـ لا وجه لحمله على غيره .

وقوله « أياما » : منصوب على الظرفية ، أو بفعل مضمر مقدر . أى صوموا أياما .

رخصة .. للمريض والمسافر

وقوله ـ تعالى ـ : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » : زيادة بيان ليسر الشريعة الاسلامية : بعد أن أخبرهم ـ عز وجل ـ بأن الصوم المفروض عليهم إنما هو أيام معدودات ، وتعجيل بتطمين نفوس السامعين لئلا يظنوا وجوب الصوم عليهم فى كل حال .

والمرض : الخروج عن حدود الاعتدال الخاص بالانسان ، بأن يصاب بانحراف فى جسده يجعله فى حالة وجع أو اضطراب بدنى .

قال القرطبى ـ رحمه الله ـ : وللمريض حالتان :.

إحداهما : ألا يطيق الصوم بحال ، فعليه الفطر واجبا .

الثانية : أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة ، فهذا يستحب له الفطر . . .

فالفطر مباح فى كل مرض ، إلا المرض اليسير الذى لا كلفة معه فى الصيام .

قال بعض العلماء : وقوله ـ تعالى ـ : « أو على سفر » ، أى : أو كان بحالة سفر . وأصل كلمة « على » أنها تدل على الاستعلاء ، ثم استعملت مجازا فى التمكن من الشيء ، ثم شاع فى كلام العرب أن يقولوا : فلان على سفر ، أى : مسافر ، ليكون نصا فى المتلبس بالسفر ، فنبه الله ـ تعالى ـ بهذا اللفظ المستعمل فى التلبس بالفعل ـ على أن المسافر لا يفطر ، حتى يأخذ فى السير فى السفر ، دون مجرد النية . . . » .

والعدة : فعله من العد ، وهى بمعنى المعدود ، ومنه عدة المرأة .

والمعنى : لقد فرضنا عليكم الصوم - أيها المؤمنون - وجعلناه - كما هو الشأن فى كل ما كلفناكم به - متسما باليسر لا بالعسر ، ومن مظاهر ذلك : أننا فرضنا عليكم صوم أيام معدودات وهى أيام شهر رمضان ، ولم نفرض عليكم صوم الدهر كله . .

وإننا - بمقتضى رحمتنا وإحساننا - قد شرعنا لمن كان مريضا مرضا يضره الصوم ، أو كان على سفر يشق معه الصوم ، شرعنا له أن يفطر ، وأن يصوم بدل الأيام التى أفطرها أياما أخر ، مساوية لها فى العدد .

هذا ، وقد نص الفقهاء على أن الافطار مشروع على سبيل الرخصة للمريض والمسافر ، وهما بالخيار فى ذلك ، إن شاءا أفطرا وإن شاءا صاما ، إلا أن أكثر الفقهاء قالوا : الصوم أفضل لمن قوى عليه ، لقوله - تعالى - بعد ذلك « وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » .

● ● ●

والذى نراه أن الله - تعالى - قد أباح الفطر فى رمضان ، بسبب المرض أو السفر ، لأن كلا منهما مظنة المشقة والحرج . والحكم الشرعى يوجد حيث توجد مظنته ، وينتفى حيث تنتفى ، وعلى المسلم أن يقدر حال نفسه ، فإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره ليس فى الصوم معه مشقة أو عسر ، صام ، عملا بقوله - تعالى - : « وأن تصوموا خير لكم » .

وإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره يجعل الصوم شاقا عليه ، أفطر ، عملا بقوله - تعالى - : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

فالمسألة ترجع الى ضمير الفرد ودينه واستفتاء قلبه .

والثابت عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه صام فى السفر وأفطر ، وَخَيَّرَ أصحابه بين الصوم والفطر ، فقد جاء فى الصحيحين ـ البخارى ومسلم ـ عن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ قال : خرجنا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شهر رمضان ، فى يوم حار ، حتى ليضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر ، وما فينا صائم إلا ما كان من النبى صلى الله عليه وسلم ومن عبدالله بن رواحه .

وفى الصحيحين ـ أيضا ـ عن أنس بن ماللك ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا نسافر مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم » .

وأخرج الامام مسلم فى صحيحه عن قَزَعة قال : أتيت أبا سعيد الخدرى ، فسألته عن الصوم فى السفر فقال : سافرنا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى مكة ونحن صيام ، قال : فنزلنا منزلا ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنكم قد دنوتم من عدوكم ، والفطر أقوى لكم ، فكانت رخصة ، فمنا من صام ، ومنا من أفطر . ثم نزلنا منزلا آخر فقال : إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا . وكانت عزمة فأفطرنا . ثم قال : ولقد رأيتنا نصوم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك فى السفر » .

● ● ●

وقوله ـ سبحانه ـ : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » : بيان لحكم آخر من أحكام الشريعة فيما يتعلق بصوم رمضان ، يتجلى فيه تيسير الله على عباده فيما شرع لهم من عبادات .

ومعنى « يطيقونه » يقدرون عليه ويتحملونه بمشقة واضحة ، وتعب شديد ، لأن الطاقة اسم للقدرة على الشىء

مع الشدة والمشقة والتعب . والوسع : اسم للقدرة على الشيء بسهولة ويسر .

قال الراغب : الطاقة : اسم لمقدار ما يمكن للانسان أن يفعله بمشقة ، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشيء ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » .

أى : ولا تحملنا ما يصعب علينا مزاولته ، وليس معناه : ولا تحملنا ما لاقدرة لنا به » .

والعرب لا تقول فلان أطاق الشيء ، إلا إذا كانت قدرته عليه فى نهاية الضعف ، بحيث يتحمله بمشقة وعسر ، فلا يقال ـ مثلا ـ فلان يطيق حمل نواة أو ريشة ، أو عشرة دراهم من حديد ، وإنما يقال ـ مثلا ـ هو يطيق حمل قنطارين من الحديد ، أو يطيق حمل الأمتعة الثقيلة .

● ● ●

وللعلماء أقوال فى المراد بقوله ـ تعالى ـ : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » أشهرها :

أ ـ أن هذا راجع الى المقيم الصحيح . . خيره الله ـ تعالى ـ بين الصوم والفداء ، وكان ذلك فى أول الأمر ، فقد فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه ، فاشتد عليهم ، فرخص لهم فى الافطار والفدية ، ثم نسخ ذلك وأوجب الله عليهم الصوم .

ويشهد لهذا القول ، ما جاء فى الصحيحين عن سلمة بن الأكوع قال : لما نزلت هذه الآية « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » كان من أراد أن يفطر يفتدى ، حتى نزلت الآية بعدها فنسختها » .

ومراده ـ رضى الله عنه ـ بقوله حتى نزلت الآية بعدها فنسختها ، قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

ومما يدل على أن هذا هو مراده ـ رضى الله عنه ـ ،

ما أخرجه الامام مسلم فى صحيحه ـ عن سلمة بن الأكوع ـ أيضا ـ أنه قال : كنا فى رمضان على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من شاء منا أفطر فافتدى بطعام مسكين ، حتى أنزلت هذه الآية : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

● ● ●

ب ـ ويرى بعض العلماء أن قوله ـ تعالى ـ : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » ليس بمنسوخ ، بل هو محكم ، وأنه نزل فى شأن الشيخ الكبير الهرم ، والمرأة العجوز ، إذا كانا لا يستطيعان الصيام ، فيباح لهما ان يفطرا وأن يطعما عن كل يوم مسكينا .

وأصحاب هذا الرأى يستدلون برأيهم بما رواه الامام البخارى فى صحيحه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال فى هذه الآية : ليست بمنسوخة ، وانما هى فى الشيخ الكبير ، والمرأة العجوز . لا يستطيعان أن يصوما ، فعليهما أن يطعما عن كل يوم مسكينا » .

● ● ●

ج ـ وهناك رأى ثالث لبعض العلماء يرى أصحابه أن قوله ـ تعالى ـ : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » ليس بمنسوخ ـ أيضا ـ بل هو محكم ، وأن معنى الآية عندهم : وعلى الذين يطيقونه ، أى يقدرون على الصوم بمشقة شديدة ، إذا أرادوا أن يفطروا ، أن يطعموا عن كل يوم يفطرونه مسكينا ، بأن يقدموا له نصف صاع من بر ، أوصاع من تمر أو شعير ، أو قيمة ذلك .

ولم يقصروا ذلك على الرجل الكبير والمرأة العجوز ـ كما فعل أصحاب الرأى الثانى ـ وإنما أدخلوا فى حكم الذين يقدرون على الصوم بمشقة وتعب : المرأة المرضع ، والمرأة الحامل ، اذا خافتا على أنفسهما ، أو ولديهما ، ومن فى حكمهما ، ممن يقدرون على الصوم ولكن بمشقة شديدة ، وتعب واضح .

وأصحاب هذا الرأى يستدلون لما ذهبوا إليه بمنطوق الآية ، إذ أن الوسع اسم للقدرة على الشيء على جهة السهولة . والطاقة : اسم للقدرة عليه مع الشدة والمشقة ـ كما سبق أن بيننا ـ .

هذا ، وقد انتصر بعض العلماء لهذا الرأى ، بناء على أن منطوق الآية يؤيده . كما انتصر آخرون للرأى الأول ، بناء على أن الأحاديث الصحيحة تسانده ، وعلى أنه هو الأقرب لروح الشريعة الاسلامية فى التدرج فى تشريع التكاليف ، التى فيها مشقة على الناس .

كما انتصر فريق ثالث للرأى الثانى المروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وهناك أقوال أخرى فى الآية ، رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها .

● ● ●

وقوله ـ تعالى ـ : « فمن تطوع خيرا فهو خير له » : حض منه ـ تعالى ـ لعباده على الاكثار من عمل الخير .

والتطوع : اسم للسعى فى أن يكون الانسان فاعلا للطاعة باختياره بدون إكراه . والخير : مصدر خار الشيء ، إذا حَسُن وشَرُف .

والمعنى : فمن تطوع خيرا ، بأن زاد على القدر المفروض فى الفدية بأن أطعم أكثر من مسكين واحد ، أو بأن جمع بين الاطعام والصوم ، فتطوعه سيكون خيرا له عند الله ، لأنه ـ سبحانه ـ لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وقوله ـ تعالى ـ : « وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » : ترغيب فى الصوم ، وتحبيب فيه .

أى : وأن تصوموا ـ أيها المطيقون للصوم ، أو أيها المكلفون جميعا ـ فصيامكم خير لكم من كل شىء سواه ، إن كنتم تعلمون فوائد الصوم فى حياتكم ، وحسن جزائه فى آخرتكم .

روى النسائى وابن خزيمة عن أبى أُمامة ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت يا رسول الله ، مرنىْ بعمل . قال : عليك بالصوم فانه لا عِدْلَ له » . أى : لا يعادل ثوابه شىء . فقلت يا رسول الله ، مرنى بعمل فقال : « عليك بالصوم فإنه لا عدل له » . فقلت يا رسول الله ، مرنى بعمل أدخل به الجنة ؟ فقال : « عليك بالصوم فإنه لا مثل له » .

أول ما أنزل من القرآن

وقوله ـ تعالى ـ : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » : كلام مستأنف لبيان تلك الأيام المعدودات التى كُتِبَ علينا الصوم فيها ، وأنها أيام شهر رمضان التى تستحق كل مدح وثناء ، لتشرفها بنزول الكتب السماوية فيها .

قال الامام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يمدح الله ـ تعالى ـ شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم .

فقد ورد فى الحديث الشريف ، بأنه الشهر الذى كانت تنزل فيه الكتب السماوية على الأنبياء . فعن وائله بن الأسقع أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، وأنزل الانجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين ليلة خلت من رمضان .

ـ والشهر : مأخوذ من الشهرة . يقال : شهَر الشىء يشهُر شُهَرة وشَهرا ، إذا ظهَر بحيث لا يتعذر علمه على أحد . ومنه قولهم ، شهرت السيف ، إذا سللته وأبرزته .

قالوا : وسمى الهلال شهرا ، لشهرته وبيانه ، وبه سُمى الشهر شهرا . ورمضان : اسم لهذا الشهر الذى فرض الله علينا صيامه ، وهو مأخوذ ـ كما يقول الامام القرطبى ـ من

رمض الصائم يرمض ، إذا حر جوفه من شدة العطش .
والرمضاء : شدة الحر . ومنه الحديث الشريف : « صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال » . أى : صلاة الضحى عندما يشتد حر الضحى .
قيل : إن العرب لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة ، سموها بالأزمنة التى وقعت فيها ، فوافق شهر رمضان أيام رمض الحر وشدته ، فسمى بذلك . وقيل : إنما سمى رمضان ، لأنه يرمض الذنوب ، أى : يحرقها بالأعمال الصالحة » .

● ● ●

والقرآن : هو كلام الله ـ تعالى ـ المعجز ، المنزل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ، المكتوب فى المصاحف ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته .
والمراد بإنزال القرآن فى شهر رمضان : ابتداء إنزاله فيه ، وكان ذلك فى ليلة القدر ، بدليل قوله ـ تعالى ـ : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » وهى ليلة القدر التى صرح سبحانه وتعالى بها فى قوله تعالى : « انا انزلناه فى ليلة القدر »
أى : ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر ، إذ من المعروف أن القرآن قد نزل منجما على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مدة تصل الى ثلاث وعشرين سنة تقريبا .
وقيل : المراد بقوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » أى : أنزل فى فضله بعض آيات القرآن . .
قالوا : ومثله أن يقال : أنزل الله ـ تعالى ـ فى فضل أبى بكر كذا آية . يريدون أنزل فى فضله ومدحه .
وقيل : المراد أنزل فى إيجاب صومه على المسلمين القرآن .
كما يقال : أنزل الله فى فريضة الصلاة ، أو فى فريضة الصوم ، كذا وكذا من آيات القرآن . أى : فى إيجاب فرضيتها ولزوم

أدائهما . وأنزل الله فى الخمر وفى الربا كذا وكذا من آيات القرآن . أى : فى النهى عن تعاطيهما وفى شأن تحريمهما .

●●● والمعنى : هذا هو شهر رمضان ، الذى من بركاته وفضائله ، أن الله ـ تعالى ـ بدأ إنزال القرآن فيه ، على قلب نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وهذا القرآن من خصائصه ومزاياه ، أنه هداية للناس ، وأنه آيات بينات ، فاصلة بين الحق والباطل ، على مر العصور والأجيال .

ومن المعروف أن أول ما نزل من قرآن ، على الرسول صلى الله عليه وسلم هو صدر سورة « العلق » وكان ذلك فى شهر رمضان عندما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ معتكفا فى غار حراء .

قال بعض العلماء : واختير شهر رمضان من بين الأشهر ، ليكون فيه الصيام المفروض على الأمة ، لأنه قد شرف بنزول القرآن فيه ، لأن نزول القرآن لما كان لقصد تنزيه الأمة وهداها ، ناسب أن يكون ما به تطهير النفوس ، واقعا فيه .

أخرج ابن اسحاق أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « جاورت بحراء شهر رمضان » وقال ابن سعد : جاءه الوحى وهو فى غار حراء ، يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة ، خلت من شهر رمضان » .

●●●

وقوله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » : يصح أن يكون الفعل « شهد » هنا بمعنى حضر ، كما يقال : فلان شهد بدرا ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أى : حضرها . فيكون المعنى : فمن حضر منكم دخول الشهر أو حلوله ، فليصمه ، متى كان مقيما ،

وليس عنده ما يمنعه من الصوم كمرض ونحوه ، لأن صيامه ركن من أركان الاسلام . ويصح أن يكون الفعل « شهد » بمعنى علم ، كما فى قوله ـ سبحانه ـ : « شهد الله أنه لا اله الا هو ».

فيكون المعنى : فمن علم منكم ظهور هلال شهر رمضان فليصمه .

حالة .. من حالات ثلاث !

وأعيد ذكر الرخصة فى قوله ـ تعالى ـ «ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر» لئلا يتوهم من تعظيم أمر الصوم فى نفسه وأنه خير ، أنه قد صار صيامه متحتما ، بحيث لا تتناوله الرخصة بوجه من الوجوه ،؛ أو تتناوله ولكنها مفضولة ، وفى ذلك عناية بأمر الرخصة ، وأنها محبوبة عند الله ـ تعالى ـ وبذلك يزول الحرج عن القلوب ، وتدخل الطمأنينة فى النفوس .

وقوله سبحانه «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» . . بيان للحكمة من هذه الرخصة أى : شرع الله ـ تعالى ـ لكم الفطر فى حالتى السفر والمرض ، لأنه ـ تعالى ـ يريد بكم اليسر والسهولة ، ولا يريد بكم العسر والمشقة ، إذ أن شريعته ـ تعالى ـ مبينة على اليسر والسماحة ورفع الحرج .

والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية فى هذا المعنى كثيرة .

أما الآيات القرآنية فمنها قوله ـ تعالى ـ «يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا» .

وقوله ـ سبحانه ـ «وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج» .

وقوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

وقوله ـ عز وجل ـ «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون» .

وأما الأحاديث النبوية فمنها ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن الدين يُسْرٌ ، ولن يُشَاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغَدْوَةِ والرَّوحَةِ وشىء من الدُّلْجَة» .

أى : أن الدين الاسلامى بشرائعه جميعها قد جعله ـ سبحانه ـ يسرا لا عسرا ـ ولن يتشدد انسان فى التكاليف الدينية ويتجاوز الحدود المشروعة إلا غلبه الدين ، ومادام الأمر كذلك فتوسطوا فى كل أموركم ، وقاربوا ، وأبشروا بالخير ، واستعينوا على قضاء مصالحكم وعلى طاعة الله ـ تعالى ـ بالعزيمة الصادقة ، والنية الطيبة ، ووقت نشاطكم ، بأول النهار وآخره وآخر الليل وهو وقت الدُّلجة .

وأخرجه الامام مسلم فى صحيحه عن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال : «هلك الْمُتَنَطِّعون» قالها ثلاثا .

والمتنطعون : هم المتعمقون المتشددون فى غير موضع التشديد .

●●●

ثم بين ـ سبحانه ـ حكمة اخرى لوجوب صوم رمضان فقال «ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون» .

أى : شرع لكم ما شرع من أحكام الصيام ، ورخص لكم الفطر فى حالتى المرض والسفر ، لأنه ـ تعالى ـ يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولأنه يريد منكم ان تكملوا عدة الشهر ، بأن تصوموا أيامه كاملة فتحصلوا خيراته ، ولايفوتكم شىء من بركاته ، ومن لم يستطع منكم أداء الصوم فى هذا الشهر لعذر من الأعذار المشروعة ، فعليه قضاء ما فاته منه فى

أيام أخر ، ويريد منكم ـ سبحانه ـ أن تكبروه ، وتحمدوه ، وتعظموه ، فهو وحده الذى هداكم الى تلك الأحكام النافعة ، التى فيها صلاحكم وسعادتكم ، ويريد منكم أن تشكروه ، بأن تواظبوا على الثناء عليه ، وعلى استعمال نعمه فيما خلقت له ، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ الرءوف الرحيم بعباده ، إذ شرع لهم ما فيه اليسر لا ما فيه العسر .

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة ، قد بينت أكمل بيان وأحكمه فضل الصوم ، وحكمة مشروعيته ، ومظاهر رحمة الله بعباده فى هذه الفريضة .

وقد ذكرت هذه الآيات ، أن المسلم له بشأن هذه الفريضة حالة من حالات ثلاث :

الحالة الأولى : إذا كان المسلم مريضا خلال شهر رمضان بمرض عارض غير مزمن ، يرجى منه الشفاء ، أو مسافرا سفرا تتوافر فيه شروط الفطر ، فله فى هاتين الحالتين أن يفطر ، وأن يقضى بعد رمضان الأيام التى أفطرها ، بدليل قوله ـ تعالى ـ «فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر» .

الحالة الثانية : «إذا كان المسلم فى شهر رمضان مريضا بمرض مزمن لايُرجَى شفاؤه والصوم يتعبه تعبا شديدا ، أو كان شيخا كبيرا ، أو امرأة عجوزا ، ولايستطيعان الصوم ، فقد أباحت الشريعة الاسلامية لهؤلاء أن يفطروا ، وأن يطعموا عن كل يوم مسكينا ، لأن هذه الأعذار لايرجى زوالها ، ولا ينتظر أن يكون المبتلى بعذر منها بعد رمضان ، خيرا منه فى رمضان ، لذا أوجب الشارع على هؤلاء الفدية دون القضاء ، بدليل قوله ـ تعالى ـ «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» .

الحالة الثالثة : إذا كان المسلم فى شهر رمضان ، سليما مقيما ، وليس له عذر يمنعه من الصوم ، فقد أوجب الله ـ تعالى ـ أداء هذه الفريضة بقوله : «فمن شهد منكم الشهر

فليصمه» ويحرم عليه أن يفطر ، فإن أفطر ـ لغير عذر شرعى ـ كان من الخاسرين .

ففى الحديث الشريف عن أبى هريرة ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : من أفطر يوما فى رمضان ، من غير رخصة ولا مرض ، لم يقضه ـ أى : لم يجزه ـ صوم الدهر كله وإن صامه . . أى : لو حصل منه صوم طول حياته ، فلن يدرك ثواب ما ضيعه بسبب فطره بغير عذر شرعى .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن العباد إذا حافظوا على فرائضه ، واستجابوا لأوامره ، وابتعدوا عن نواهيه ، فإنه ـ عز وجل ـ لا يرد لهم طلبا ـ ولا يخيب لهم رجاء ، فقال : «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى ، لعلهم يرشدون» .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من أن أعرابيا جاء الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : يارسول الله ، أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ـ أى : أقريب ربنا منا فندعوه سرا دون أن نرفع أصواتنا ، أم بعيد عنا فنرفع أصواتنا عند الدعاء ؟ فسكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قليلا ، فنزلت عليه هذه الآية .

والمعنى : وإذا سألك عبادى يامحمد عن قربى وعن بعدى ، فقل لهم : إن ربكم قريب منكم بقدرته ، وعلمه ، ورحمته .

فقوله ـ سبحانه ـ «فإنى قريب» تمثيل لكمال علمه ـ تعالى ـ بأفعال عباده وأحوالهم ، واطلاعه على سائر أحوالهم ، بحال من قرب مكانه منهم ، إذ القرب المكانى محال عليه ـ تعالى ـ

والمراد بالعباد الذين اضيفوا اليه ـ سبحانه ـ المؤمنون الصادقون ، لأن الحديث عنهم ، ولأن سياق الحديث فى هذه الآيات فى بيان أحكام الصوم وفضائله ، وهو خاص

بالمؤمنين ، وقد أضيفوا الى ضمير الجلالة لتشريفهم وتكريمهم .

●●●

وقوله ـ سبحانه ـ «أجيب دعوة الداع إذا دعان» تقرير للقرب ، وتحقيق له ، ووعد للداعى بالاجابة متى صدر الدعاء من قلب سليم ، ونفس صافية ، وجوارح خاشعة .

ولقد ساق لنا القرآن الكريم أمثلة متنوعة فى آيات كثيرة ، لعباد الله ـ تعالى ـ تضرعوا اليه بالدعاء ، فأجاب لهم دعاءهم .

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم» .

وقوله ـ تعالى ـ فى شأن ابراهيم ـ عليه السلام ـ «رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم» .

وقوله ـ سبحانه ـ حكاية عن يوسف ـ عليه السلام ـ «رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصْبُ إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم» .

الى غير ذلك من الآيات الكريمة التى قصت علينا جانبا من دعوات الأنبياء والصالحين ، والذين رفعوا أكف الضراعة الى الله ـ تعالى فأجاب لهم ـ سبحانه ـ دعاءهم ، ولم يخيب سؤالهم .

●●●

وقوله ـ سبحانه ـ «فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون» توجيه منه ـ تعالى ـ الى ما يجعل الدعاء مرجو القبول .

أى : لقد وعدتكم يا عبادى بأن أجيب دعاءكم إذا دعوتمونى ، فعليكم أنتم أن تستجيبوا لأمرى ، وأن تنفذوا

ما كلفتكم به ، وأن تقفوا عند حدودى ، لعلكم بذلك تصلون الى ما فيه رشدكم وسعادتكم .

قال الامام ابن كثير عن تفسيره لهذه الآية : «وفى ذكره ـ تعالى ـ هذه الآية ، الباعثة على الدعاء ، متخللة بين أحكام الصيام ، إرشاد الى الاجتهاد فى الدعاء عند إكمال العدة ، بل وعند كل فطر ، فعن عبدالله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة .

فكان عبدالله بن عمرو ـ رضى الله عنه ـ إذا أفطر جمع أهله وولده وأكثر من الدعاء .

جانب من مظاهر الرحمة

وبعد هذا الحديث الجامع المؤثر عن الدعاء وفضله ، عادت الآيات الكريمة الى الحديث عن جانب من أحكام الصيام ، ومن مظاهر رحمته ـ تعالى ـ بعباده فيما شرع لهم من أحكام ، فقال ـ عز وجل ـ «أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» .

وقد ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآية ، أحاديث تفيد ان المسلمين كانوا عندما فرض صيام شهر رمضان عليهم ، إذا أفطروا يأكلون ويشربون ويقربون النساء مالم يناموا بالليل ، فإذا ناموا حرم عليهم بعد ذلك الطعام والشراب وقربان النساء ، حتى يفطروا من الغد .

ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى : ما أخرجه الإمام أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم ، عن عبدالله بن كعب بن مالك عن أبيه قال : كان الناس فى رمضان إذا صام الرجل ثم أفطر فنام ليلا ، حَرُم عليه الطعام والشراب والنساء ، حتى يفطر من الغد ، فرجع عمر بن الخطاب فى ليلة من عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأراد إمرأته فقالت له : أنى قد نمت فقال لها : ما نمت ، ثم جامعها .

وصنع كعب بن مالك مثل ذلك ، فغدا عمر بن الخطاب الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره بما حدث منه فأنزل الله هذه الآية .

ومنها ما أخرجه البخارى عن البراء بن عازب قال : كان أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا كان الرجل صائما .

فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر ، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى ، وإن قيس بن صرمة الأنصارى كان صائما ، وكان يعمل فى النخيل بالنهار فلما حضر وقت الافطار ، أتى امرأته فقال لها : أعندكِ طعام ؟ قالت : لا ، ولكن أنطلق فأطلب لك ، فغلبته عيناه فنام ، فجاءته امرأته فرأته نائما ، فلما انتصف النهار غُشىَ عليه ، فذكر ذلك للنبى - صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآية ، ففرحوا فرحا شديدا .

●●●

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية من قبيل النسخ ، لأنها نسخت ما كان حاصلا فى أول فرضية الصيام ، من أن الصائم إذا نام بعد فطره ، لا يحل له الأكل أو الشرب أو الجماع ، الى أن يفطر من الغد .

ويرى بعض العلماء أن الآية الكريمة ليست من قبيل النسخ ، وإنما هى ارشاد الى ما شرعه الله - تعالى - لعباده خلال شهر رمضان ، من إباحة غشيان زوجاتهن ليلا ، ومن جواز الأكل والشرب سواء أكانوا قد ناموا بالليل ، أم لم يناموا .

وكأن الصحابة كانوا يتحرجون عن ذلك إذا ناموا ، ظنا منهم أنه من تتمة الصوم ، فبين الله - تعالى - لهم أن أكلهم وشربهم وجماعهم لنسائهم بالليل حلال ولا حرج فيه ، وعلى كلا القولين ، فالآية الكريمة تسوق لنا من ألوان رحمة الله - تعالى - بعباده فيما شرع لهم من فرائض وأحكام .

●●●

والمراد بليلة الصيام : الليلة التى يصبح فيها الانسان صائما ، بدون تحديد لليلة معينة من شهر رمضان .

والرفث فى الأصل : الفحش من القول ، والمراد هنا : الجماع والمباشرة .

والمعنى : أحل الله تعالى لكم فى ليالى صومكم الإفضاء الى نسائكم ومباشرتهن .

وقوله ـ تعالى ـ «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» كلام حكيم وارد مورد المقتضى لإباحة مباشرة النساء فى ليالى الصيام ، وذلك لأن كلًّا من الزوجين يسكن الى صاحبه ، ويكون لشدة القرب منه ، كالثوب الساتر له ، وكان العرب يسمون المرأة لباسا ، وهذه حال تقوى معها الدواعى على المباشرة .

وفى هذا التعبير ما فيه من اللطافة وسمو التعبير ، حيث شبه ـ سبحانه ـ ما بين الزوجين من شدة الاتصال ، باللباس الساتر لكل منهما .

وقوله ـ سبحانه ـ «علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم» جملة معترضه بين قوله ـ تعالى ـ «أحل لكم ليلة الصيام . .» وبين قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : «فالآن باشروهن» .

وقد جىء بها لبيان حالهم بالنسبة لما فرط منهم ، ولبيان مظهر من مظاهر رحمة الله ـ تعالى ـ بعباده .

وقوله : «تختانون» من الاختيان ، وهو محاولة الخيانة دون الإقدام عليها بشدة . بعد النوم ، قبل أن يظهر الفجر الصادق .

بل إن بعضكم قدفعل ذلك ، فكان من رحمة الله ـ تعالى ـ بكم ، أن أباح لكم الأكل والشرب والجماع فى ليالى الصوم ، وأنه قَبِل توبتكم ، وعفا عنكم ، بأن محا أثر ما فعلتموه من الأكل والشرب والجماع ، قبل أن يأذن لكم بذلك .

●●●

وقوله ـ تعالى ـ «فالآن باشروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم» بيان لما أباحه الله ـ تعالى ـ لهم بفضله وكرمه .

أى : لقد أبحنا لكم الافضاء إلى نسائكم فى ليالى رمضان ، بعد إن كنتم متحرجين من ذلك ، فالآن وبعد نزول هذه الآية ، باشروهن ، واطلبوا من وراء هذه المباشرة لهن ، ما كتبه الله ـ تعالى ـ لكم ، من الذرية الصالحة ، ومن التعفف عن كل ما لا يرضاه خالقكم . وقوله ـ تعالى ـ «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» معطوف على ما قبله ، على سبيل بيان المزيد من رحمته ـ تعالى ـ بهم ، وفضله عليهم ، ورعايته لهم .

والمقصود بالخيط الابيض : أول ما يبدو من الفجر الصادق ، المعترض فى الأفق قبل انتشاره ، والمقصود من الخيط الأسود ما يمتد مع بياض الفجر من ظلمة الليل . والمعنى : لقد أبحنا لكم ـ بفضلنا واحساننا ـ مباشرة النساء فى ليالى الصوم ، وأبحنا لكم كذلك أن تأكلوا وأن تشربوا فى هذه الليالى ، حتى يتبين لكم بياض الفجر ، من سواد الليل .

وشبه ـ سبحانه ـ بياض النهار وسواد الليل بالخيطين : الأبيض والأسود ، لأن أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق ، وما يمتد معه من غبش الليل ، يكون كالخيط الممدود فى الفضاء .

وقوله ـ سبحانه ـ : «من الفجر» : بيان للخيط الأبيض ، واكتفى به عن بيان الخيط الأسود لأن بيان أحدهما بيان للثانى .

هذا ، وقد وردت روايات صحيحة ، تفيد أن قوله ـ تعالى ـ «من الفجر» قد تأخر نزوله عن الجمل السابقة له .

ففى الصحيحين عن سهل بن سعد قال : أنزلت «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود» ولم ينزل «من الفجر» فكان رجال إذا أرادوا الصوم ، ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض ، والخيط الأسود ، فلايزال يأكل

ويشرب ، حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله بعده «من الفجر» فعلموا أنه ـ سبحانه ـ يعنى الليل والنهار.

وفى الصحيحين ـ أيضا ـ عن عدى بن حاتم ـ رضى الله عنه ـ قال : لما نزلت هذه الآية عمدت الى عقالين لى أسود وأبيض ـ فجعلتهما تحت وسادتى ، وجعلت أنظر إليهما فى الليل ، فلا يتبين لى ، فعمدت الى ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكرت له ذلك ، فقال : «إنما هو سواد الليل وبياض النهار» ونزل قوله ـ تعالى ـ «من الفجر» .

●●●

وقوله ـ تعالى ـ : «ثم أتموا الصيام الى الليل» بيان لانتهاء وقت الصيام بعد أن بينت الجملة السابقة بدايته .

أى : أبدأوا صومكم من طلوع الفجر ، وانتهوا منه بدخول الليل عند غروب الشمس ، اذ الليل ليس بوقت للصيام .

ففى الصحيحين عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أقبل الليل من هنا ، وأدبر النهار من هنا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم .

وكان من عادته ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعجيل الفطر ، فقد أخرج الشيخان ـ البخارى ومسلم ـ عن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «لايزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» .

●●●

وقوله ـ تعالى ـ : «ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد» استثناء من عموم اباحة المباشرة بالليل .

أى : لقد أبحنا لكم مباشرة نسائكم فى ليالى رمضان ، ولكنكم إذا كنتم معتكفين فى المساجد ، حرم عليكم مباشرتهن بالليل والنهار ، لأن المعتكف ملازم لطاعة الله ـ تعالى ـ فعليه

أن يتجنب ما يقطع هذه الطاعة ، ولو بمباشرة زوجه فى الليل أو فى النهار ، ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : «تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته إلناس لعلهم يتقون» .

أى : تلك الأحكام التى شرعناها لكم من إيجاب الصوم ، ومن تحريم الأكل والشرب والجماع فى نهاره ، ومن إباحة ذلك فى ليله .

تلك هى حدود الله التى لا يحل لكم مخالفتها أو مجاوزتها . ومثل هذا البيان الجامع الحكيم ، يبين الله ـ تعالى ـ لكم أدلته وحججه وأحكامه ، لكى تصونوا أنفسكم مما يؤدى بكم الى العقوبة ، وتكونوا ممن رضى الله ـ تعالى ـ عنهم ، ورضوا عنه .

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة التى وردت فى شأن الصيام ، قد بينت لنا : ان الله ـ تعالى ـ قد فرض علينا الصيام كما فرضه على الأمم التى من قبلنا . . كما بين لنا ـ سبحانه ـ الحكمة من هذا الصيام ، ومظاهر رحمته ـ تعالى ـ بنا فى هذه الفريضة ، وفضل هذا الشهر ، ورعايته ـ سبحانه ـ لمصالح عباده ، كل ذلك بأسلوب بليغ حكيم ، جمع بين الترغيب والترهيب ، الاباحة والتحريم ، وغير ذلك من أنواع الهداية والارشادات ، الى ما يسعد الناس فى دينهم وفى دنياهم وفى آخرتهم .

من أحكام الصيام

ما معنى الصوم ؟

الصوم فى اللغة : الامساك عن الشيء ، يقال صام فلان عن الكلام ، إذا سكت عنه ، ومنه قوله تعالى حكاية عن مريم : «إنى نذرت للرحمن صوما» . . «أى نذرت للرحمن أن أصمت عن الكلام فى شأن ابنى عيسى ـ عليه السلام ـ ومعناه فى الشرع : الامساك عن المفطرات ، من طلوع الفجر الصادق ، الى غروب الشمس ، مع النية .

ومتى فرض الصوم ؟

فرض الله تعالى الصوم على المسلمين فى شهر شعبان ، من السنة الثانية للهجرة ، وقد ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة ، واجماع الأمة .

أما ثبوته بالكتاب ، فيتجلى فى قوله تعالى : «ياأيها الذين أمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» .

وفى قوله ـ سبحانه ـ : «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه . .» .

وأما ثبوته فى السنة ، فيتجلى فى أحاديث متعددة ، منها : ما رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «إن الاسلام بنى على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج البيت» .

ومنها ما رواه البخارى ومسلم عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل الى النبى - صلى الله عليه وسلم - من أهل نجد ثائر الرأس ، نسمع دوى صوته ، ولا نفقه ما يقول ، حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الاسلام ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : «خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فقال : هل على غيرهن ؟ قال : لا إلا أن تطوع . ثم قال - صلى الله عليه وسلم - وصوم رمضان ، قال : هل على غيره ؟ قال : لا إلا أن تطوع . . » .

وأما الاجماع ، فقد أجمعت الأمة على وجوب صوم شهر رمضان على كل مكلف بصيامه ، وأن منكر ذلك يكون مرتدا عن دين الاسلام ، لأنه أنكر أمرا ثبت من الدين بالضرورة .

●●●

بم يثبت هلال شهر رمضان ؟

يثبت هلال شهر رمضان برؤية جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب ، فإن لم تتيسر هذه الجماعة ، ثبت برؤية شخصين عدلين له ، فإن لم يتيسر ذلك ، ورآه شخص واحد عدل ، أخذ بقوله - عند جمهور العلماء - وصام المسلمون بناء على شهادته بأنه رآه .

ولا بأس بالاستعانة فى الرؤية لكل ما يساعد على رؤيته ، بواسطة الوسائل العلمية الحديثة ، كالمناظير المكبرة ومايشبهها ، كذلك يجب أن يتعاون العلماء المتخصصون فى علوم الفلك ، والأرصاد الجوية ، مع الفقهاء فى علوم الشريعة الاسلامية على ما يؤدى الى تحقيق رؤية هلال شهر رمضان ، فإن هذا التعاون الصادق المخلص له ثمارة الطيبة ، التى تعود بالنفع الى المسلمين جميعا .

فإذا لم تثبت الرؤية الشرعية بعد تلك الجهود المتبادلة لرؤية هلال رمضان ، أكمل المسلمون عدة شعبان ثلاثين يوما .

فقد أخرج الشيخان ـ البخارى ومسلم ـ وغيرهما ـ عن أبى هريرة ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «صوموا لرؤيته ـ أى : الهلال ـ وأفطروا لرؤيته ، فإن غُمَّ عليكم ـ أى : تعذرت رؤيته عليكم ـ فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما» .

وعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «إذا رأيتموه فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا ، فإن غم عليكم ، فاقدروا له» أى : فقدروا عدة الشهر حتى تكملوا ثلاثين يوما .

والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة ، وكلها توجب الصوم والفطر بالرؤية الشرعية ، أو بإكمال الشهر ثلاثين يوما إذا لم تثبت الرؤية .

قال فضيلة الشيخ الدكتور عبدالرحمن تاج ـ رحمه الله ـ «يجب على المسلمين أن يهتموا باستقبال رمضان وأن ينهضوا لتحرى الهلال ، عقب غروب الشمس ، من اليوم التاسع والعشرين من شهر شعبان ، كى يبنوا عبادتهم على يقين وطمأنينة ، ويكونوا عاملين بنص الحديث الشريف الصحيح : «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» .

ولا ينبغى أن يتهاون فى هذا الأمر العظيم اعتمادا على أن الفلكيين قد كفوهم مئونة البحث عنه وأعفوهم من مشقة رصده وتكلف رؤيته .

ولماذا لايتخذ المسلمون هذا الحساب الفلكى عاملا مساعدا يسهل لهم مهمة البحث ، ويمكن لهم من رؤية الهلال فى غير عسر ، بما يبين لهم منزلة القمر ، ومقدار ارتفاعه ، وغاية مكثه فوق الأفق ؟

إن تقدم علم الفلك وبراعة أهله فيما يعالجون من شئونه ، وذلك الحساب الدقيق الذى يضبطون به أحوال القمر ،

ومنازله ، ومواقعه .. لا ينبغي أن يكون مثبطا لهمم المسلمين ، عن أن ينهضوا لاستقبال الهلال ، وأن يعملوا ـ مستعينين بتلك المقررات الفلكية ـ على أن يروه رؤية عينية ، فإن ذلك هو غاية العلم ، وهو عين اليقين .

●●●

وإذا كانت الشريعة لم تفرض على الناس فى تحرى الهلال اكثر من التماسه بالعين المجردة ولم تحتم عليهم أن يتكلفوا البحث عنه بوسائل أخرى رحمة بهم وتخفيفا عليهم فإن ذلك لايمنع أن تستخدم تلك الوسائل العلمية التى تسهل رؤية الهلال ، والتثبت منه ، مادامت موفورة ميسرة .

والخلاصة أن هلال شهر رمضان يثبت ولو بالرؤية الصحيحة من شخص واحد له عند جمهور العلماء . فإن استحالت الرؤية أكمل المسلمون عدة شعبان ثلاثين يوما .

وأما هلال شهر شوال فيثبت بالرؤية الشرعية له فى اليوم التاسع والعشرين من رمضان ، فإذا لم تتم الرؤية فى هذا اليوم أكملوا عدة رمضان ثلاثين يوما ، ولاتقبل فيه شهادة العدل الواحد ـ عند جمهور العلماء ـ بل لابد من أن يشهد على رؤيته اثنان معروفان بأمانتهما وبعدلهما .

قال بعض العلماء ما ملخصه : يثبت شهر رمضان بأحد أمرين :

الأول : رؤية هلاله فى اليوم التاسع والعشرين من شهر شعبان ، إذا كانت السماء خالية مما يمنع الرؤية ، من غيم أو دخان أو غبار أو مايشبه ذلك .

الثانى : إكمال شعبان ثلاثين يوما ـ إذا لم تثبت الرؤية الشرعية ـ لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غم عليكم ، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما» ثم قال : ويثبت دخول شوال بإخبار عدلين برؤية

هلاله ، ولاتكفى رؤية العدل الواحد فى ثبوت هلاله ، خلافا للشافعية الذين قالوا : تكفى شهادة العدل الواحد فى ثبوت هلال شوال ، فهو كرمضان على الراجح[1].

ومما تقدم يتبين لنا ، أن من الواجب على المسلمين ان يتحروا رؤية هلال شهر رمضان بصفة خاصة .

فقد أخرج أبو داود فى سننه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتحفظ من شعبان ما لا يتحفظ من غيره ، ثم يصوم لرؤية رمضان ، فإن غُمَّ عليه ـ أى : هلال رمضان ـ عد ثلاثين يوما ثم صام» .

كما أن من الواجب عليهم أن يتعاونوا فيما بينهم ، وعلى اختلاف تخصصاتهم فى شتى ألوان العلوم ، على ما يحقق الاطمئنان ، الى أنهم قد وصلوا الى ما هو الحق بالنسبة لثبوت الهلال ، فإن العلم ـ رحم بين أهله ـ كما يقولون ـ وأنه لا بأس من الاستعانة بالوسائل العلمية ، لتحقيق رؤية الهلال .

---

[1] راجع الفقه على المذاهب الأربعة صفحة

اختلاف المطالع

نعنى باختلاف المطالع رؤية الهلال فى بلد من بلاد المسلمين ، دون بلد آخر ،

وللعلماء بالنسبة لهذه المسألة رأيان :

الرأى الأول يرى أصحابه : أنه متى ثبتت رؤية هلال رمضان فى أى بلد من بلاد المسلمين ، وجب عليهم جميعا الصيام لا فرق فى ذلك بين القريب والبعيد منهم ، متى بلغهم خبر رؤيته ، وكان يجمعهم جزء من الليل .

وذلك لان الأمر عام لجميع المسلمين فى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» ولأن فى ذلك توحيدا لكلمة المسلمين ، وجمعا لشملهم فى عباداتهم وأعيادهم ، وفى مبدأ صومهم ونهايته .

وقد زكّى هذا الرأى مجمع البحوث الاسلامية فى مؤتمره الثالث المنعقد فى جمادى الآخر سنة ١٣٨٦ هـ الموافق سبتمبر سنة ١٩٦٦ م ، فقد قرر بالنسبة لتحديد أوائل الشهور القمرية ما يأتى :

أ ـ أن الرؤية هى الأصل فى معرفة دخول أى شهر قمرى كما يدل عليه الحديث الشريف . . فالرؤية هى الأساس ، لكن لايعتمد عليها ، إذا تمكنت فيها التهم تمكنا قويا .

ب ـ يكون ثبوت رؤية الهلال بالتواتر والاستفاضة ، كما يكون بخبر الواحد ذكرا كان أو أنثى ، إذا لم تتمكن التهمة فى إخباره لسبب من الأسباب ، ومن هذه الأسباب مخالفة الحساب الفلكى الموثوق به ، الصادر ممن يوثق به .

جـ ـ خبر الواحد ملزم له ولمن يثق به ، أما إلزام الكافة فلا يكون إلا بعد ثبوت الرؤية عند من خصصته الدولة الاسلامية للنظر فى ذلك .

د ـ يعتمد على الحساب فى إثبات دخول الشهر إذا لم تتحقق الرؤية ، ولم يتيسر الوصول الى اتمام الشهر السابق ثلاثين يوما .

هـ ـ يرى المؤتمر أنه لا عبرة باختلاف المطالع وإن تباعدت الأقاليم ، متى كانت مشتركة فى جزء من ليلة الرؤية وإن قل ، ويكون اختلاف المطالع معتبرا بين الأقاليم التى لا تشترك فى جزء من هذه الليلة .

و ـ يهيب المؤتمر بالشعوب والحكومات الاسلامية ، أن يكون فى كل إقليم اسلامى هيئة اسلامية يناط بها إثبات الشهور القمرية ، مع مراعاة اتصال بعضها ببعض ، والاتصال بالمراصد والفلكيين الموثوق بهم .

●●●

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه : أنه يعتبر لأهل كل بلد رؤيتهم ، ولا يلزمهم رؤية غيرهم .

ومن أدلتهم على ذلك ، ما أخرجه الامام مسلم فى صحيحه ، والامام الترمذى فى سننه ، والامام أحمد فى مسنده ، عن كُرَيب ـ مولى ابن عباس ـ أن أم الفضل ، بعثته الى معاوية بالشام ، قال : فقدمت الشام ، فقضيت حاجتها ، واستُهِلَّ علىَّ رمضان وأنا بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة . ثم قدمت المدينة فى آخر الشهر فسألنى ابن عباس ـ ثم ذكر الهلال ـ فقال : متى رأيتم الهلال بالشام ؟

فقلت : رأينك فى ليلة الجمعة . فقال : أنت رأيته ؟

فقلت : نعم ورآه الناس وصاموا وصام معاوية .

فقال ابن عباس : لكنا رأيناه ليلة السبت ، فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أو نراه .

فقلت : ألا تكتفى برؤية معاوية وصيامه ؟

فقال : لا . هكذا أمرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

فهذا الحديث يدل دلالة واضحة على أن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ يعتبر لأهل كل بلد رؤيتهم ، ولا تلزمهم رؤية غيرهم .

وقد زكّى هذا الرأى وأخذ به مجمع الفقه الاسلامي فى دورته الثانية بجدة سنة ١٤٠٧هـ ـ سنة ١٩٨٦ م فقد كان من بين قراراته :

«لا حاجة الى الدعوة الى توحيد الأهلة والأعياد فى العالم الاسلامى ، لأن توحيدها لا يكفل وحدتهم كما يتوهمه كثير من المقترحين لتوحيد الأهلة والأعياد ، وأن تترك قضية اثبات الهلال الى دور الافتاء والقضاء فى الدول الاسلامية ، لأن ذلك أولى وأجدر بالمصلحة العامة» .

●●●

هذا ، ودار الافتاء المصرية قد اختطت لنفسها منهجا لإثبات أوائل الشهور القمرية ، ولاسيما شهر رمضان ـ ويتلخص هذا المنهج فيما يلى :

١ ـ ان دار الافتاء المصرية تعد الرؤية الشرعية الصحيحة التى لا تهمة فيها ، هى الأصل فى تحديد أوائل الشهور القمرية ، وتستعين من أجل الوصول الى هذه الرؤية الصحيحة ، بما تقرره اللجان المتخصصة ، التى ترسلها الى أماكن متفرقة من جمهورية مصر ـ كأسوان ، والسلوم ـ والوادى الجديد ـ لاستطلاع الهلال . .

وهذه اللجان تتألف كل لجنة منها من خمسة أفراد ، ثلاثة من الفقهاء ، وإثنان من الخبراء فى العلوم الفلكية .

وتكون وظيفة الخبراء فى العلوم الفلكية ، ارشاد المستطلعين للهلال ، الى الأماكن التى يركزون نظرهم اليها ، والى الهيئة التى يكون عليها الهلال . . كما تستعين ـ أيضا ـ دار الافتاء المصرية ، بالحسابات الفلكية ، الموثوق بها ، والصادرة ممن يوثق به .

ولم يحدث أن تعارضت الرؤية الصحيحة ، مع الحسابات الفلكية السليمة .

●●●

٢ ـ ان دار الافتاء المصرية ، إذا ثبتت لديها الرؤية الشرعية الصحيحة فى مصر ، اخذت بها ، وأصدرت بمقتضاها الفتوى المناسبة .

أما إذا ثبتت هذه الرؤية فى بلد إسلامى آخر سوى مصر ولم تثبت فى مصر ، فإن دار الافتاء المصرية ، لها أن تأخذ بها إذا ما اقتنعت بصحتها ، ولها ألا تأخذ بها إذا لم تقتنع بذلك وليس لأحد أن يلزمها بالأخذ بها ، لأن دار الافتاء ـ مع احترامها لكل دور الافتاء الأخرى ـ لها موازينها الدقيقة ، فى هذا الشأن ، وهى المسئولة أمام الله ـ تعالى ـ عن كل ما يصدر عنها من فتاوى وأحكام .

٣ ـ إن مسألة صيام جميع الأقطار الاسلامية لثبوت رؤية الهلال فى قطر منها ، أو عدم صيامها ، من المسائل الاجتهاديّة التى اتجه الفقهاء بالنسبة لها اتجاهين ـ كما سبق أن بينا ـ ومن القواعد الفقهية المقررة ، أن حكم الحاكم ، أو القاضى ، أو المفتى ، فى المسائل الاجتهادية يقطع الخلاف .

بمعنى أنه إذا حصل خلاف حول هذه الرؤية التى لم تثبت فى مصر ، وثبتت فى دولة اخرى من حيث الأخذ بها أو عدم الأخذ بها ، وقالت دار الافتاء المصرية كلمتها فى هذه المسألة ، فعلى جميع المصريين المقيمين فى مصر ، بل وعلى غيرهم ممن

يقيم فى مصر ـ أيضا ـ أن يلتزموا بما قالته دار الافتاء ، لأن الحكم فى هذه المسألة وأمثالها من اختصاصها ، وهى مسئولة عنها تفتى به أمام الله ـ تعالى ـ

●●●

٤ ـ لا يصح الربط بين هلال رمضان وهلال ذى الحجة ، بالنسبة لما تقرره المملكة العربية السعودية ، لأن دار الافتاء فى مصر ، توافق السعودية فيما تقرره بالنسبة لأول أيام شهر ذى الحجة ولوقفة عرفات ، إذ جميع المناسك الخاصة بالحج تقام على أراضيها ، وليس من المقبول أن يخالفها بلد اسلامى فيما تقرره فى هذا الشأن .

أما ما يتعلق بهلال شهر رمضان أو شوال أو غيرهما فالأمر فيه مختلف ، لأن كل دولة لها أن تأخذ برؤية غيرها إذا اقتنعت بها ، ولها ألا تأخذ بها إذا لم تقتنع بذلك .

هذه أهم ملامح المنهج الذى سلكته دار الافتاء المصرية فى إثبات أوائل الشهور العربية .

حكمة مشروعية الصيام

من شأن العقلاء من الناس ، أنهم يتلقون التكاليف التى كلفهم خالقهم بها ، بالسمع والطاعة ، والامتثال والاستجابة ، سواء أكانت تلك التكاليف أمرا بفعل شىء ، أم نهيا عن ارتكاب محظور ، وصدق الله إذ يقول : «وماكان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله ، فقد ضل ضلالا مبينا» .

ومع أن شأن العقلاء كذلك ، فإن الله تعالى قد اقتضت حكمته ورحمته أن يرشد عباده إلى جانب من الحكم التى من أجلها شرع ماشرع من تكاليف .

ففريضة الصلاة ، بين ـ سبحانه ـ جانبا من فوائدها فقال : «اتل ماأوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . .»

وفريضة الزكاة أشار ـ سبحانه ـ إلى حكمة مشروعيتها فقال : «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها . .»

وفريضة الحج اخبرنا ـ سبحانه ـ ببعض وجوه منافعها فقال : «وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم . . .»

أما فريضة الصيام فقد وضح لنا ـ سبحانه ـ الحكمة فى مشروعيتها فقال «ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون»

أى : فرضنا عليكم ـ أيها المؤمنون ـ الصيام ، كما فرضناه على الذين من قبلكم من الأمم ، لعلكم بأدائكم لهذه الفريضة

تنالون درجة التقوى ، التى هى أسمى الدرجات وأعلاها ، وأرفع المنازل وأعظمها ، وبذلك تكونون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

●●●

وقد أفاض العلماء فى بيان الفوائد التى تعود على الصائمين ، ومنها :

أ ـ أن الصوم يهذب الروح ، ويعين النفس على الاستقامة والصفاء ، ويساعد القلب على التطهر والنقاء ، لأن من شأن الانسان فى حال صيامه أن يكون اكثر مراقبة لله تعالى ، وخشية من عقابه ورغبة فى ثوابه . .

قال الامام الغزالى : «الصيام زكاة النفس ، ورياضة الجسم ، وداع للبر ، فهو للانسان وقاية ، وللجماعة صيانة ، فى جوع الجسم صفاء القلب ، واتقاد القريحة ، وانقاذ البصيرة ، لأن الشبع يورث البلادة ويعمى القلب» .

وقال المرحوم الشيخ محمد عبده : ان الصوم يحدث لصاحبه ملكة المراقبة لله تعالى ، والحياء منه ، وفى هذه المراقبة اكبر مهيىء لسعادتها فى الدنيا والآخرة .

انظر هل يُقْدِمُ من صدق مع الله فى صومه . . على غش الناس وخداعهم . . كلا ، ان صاحب هذه المراقبة لايسترسل فى المعاصى ، لأنه اذا نسى وألم بشىء منها ، كان سريع التوبة ، قريب الأوبة ، كما قال ـ سبحانه ـ : «ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فاذا هم مبصرون» .

ب ـ وان الصوم ـ كذلك ـ يربى فى الانسان قوة الارادة ، وصدق العزيمة ، والتغلب على تحكم العادات فى نفسه ، وتحمل الآلام والمصاعب بصبر وجلد . .

وهذا التحمل ليس من اجل منفعة زائلة ، أو شهوة عاجلة ، وانما هو من اجل رضا الخالق ـ عز وجل ـ وطاعته ،

كما جاء فى الحديث الشريف : «يدع - أى : الصائم - طعامه وشهوته من أجلى» .

ولاشك أن هذه المناقب من شأنها أن تعين الانسان على أن يعيش حياة طيبة ، حياة قد تسامى فيها على الشهوات والملذات ، وتطلع فيها الى ماهو أجل وأبقى .

ومن الوصايا الحكيمة التى حكاها القرآن الكريم على لسان لقمان ، قوله لابنه : «يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ماأصابك ، إن ذلك من عزم الأمور» .

ج - ان الصوم - ايضا - يمثل لونا عاليا من التأديب للنفس البشرية ، فقد جرت عادة ابن آدم أنه لا يقدر النعمة حق قدرها ، الا عند فقدانها ، أو الاحتياج اليها .

فكان الصيام مع مافيه من جوع ومشقة ، تأديبا عمليا للصائمين الموسرين ، حتى يرحموا البائسين والمحتاجين . ولقد قيل لسيدنا يوسف - عليه السلام - : لماذا تكثر من الصيام وأنت الأمين على خزائن الأرض ؟ فكان جوابه : أخاف إذا شبعت أن أنسى جوع الجائعين .

●●●

ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقى ، فقد قال عن الصوم : حرمان مشروع ، وتأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع . . لكل فريضة حكمة ، وهذا الحكم ظاهره العذاب ، وباطنه الرحمة ، يستثير الشفقة ، ويحض على الصدقة ، يكسر الكِبْر ، ويعلم الصبر ، ويسن خلال البر ، حتى إذا جاع من ألف الشبع ، وحرم المترف أسباب المتع ، عرف الحرمان كيف يقع ، والجوع كيف ألمه إذا وقع » .

د - كذلك من الحكم التى من أجلها شرع الله تعالى الصوم :

تقوية البدن ، واكتساب الصحة ، والشفاء من الأمراض ، فإن كثيرا مما يصيب الناس من أمراض انما هو ناشيء من بطونهم التى يتخمونها بكل ما يشتهونه ، بدون تفرقة بين ما ينبغى ادخاله فيها وما لا ينبغى .

وفى الحديث الشريف : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان ولا محالة : فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » فالصوم فرصة لاستراحة المعدة ، التى هى متى امتلأت بأكثر مما ينبغى ، كانت بيت الداء ، وكانت الحمية - أى : الاعتدال فى الطعام - رأس الدواء .

يقول الدكتور حامد الغوابى خلال حديثه عن « فوائد الصيام الطبية » ما ملخصه :

« يفيد الصوم اضطرابات المعدة والامعاء عن طريق تمتعها باجازة سنوية هى صوم شهر رمضان ، كما أن الصوم من فوائده تخفيف وزن الجسم ، وهذا فيه نفع كبير ، إذ الوزن الزائد عن الحد له أضراره ، كما أن الصوم يفيد المرضى بارتفاع ضغط الدم ، وبالبول السكرى . . وبغير ذلك من الأمراض التى ثبت طبيا أن الصوم يساعد على علاجها . . ».

هذه بعض الحكم التى من أجلها شرع الله تعالى فريضة الصيام ، وهناك حكم أخرى يطول الحديث فى ذكرها ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

للصوم ركنان لابد من وجودهما ليكون صحيحا :

أما الركن الأول : فهو الامساك عن المفطرات من طلوع الفجر الصادق ، إلى غروب الشمس ، لقولة تعالى : « فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل . . . ».

والمراد بالخيط الأبيض ، والخيط الأسود ، بياض النهار وسواد الليل . .

وأما الركن الثانى : فهو النية ، بمعنى أن ينوى المسلم صيام شهر رمضان لقوله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين . . . » ولحديث : (إنما الأعمال بالنيات . . .) .

والنية محلها القلب ، يكفى فيها العزم والقصد وتحديد المراد منها ، كالقيام للسحور ، وتحرى وقت الفجر الصادق للامساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات ، إذ هذه الأفعال تعتبر دليلا واضحا على وجود النية للصيام ، إذ هى أثر لها .

وجمهور الفقهاء يرون وجوب تبييت النية للصيام فى كل ليلة من ليالى رمضان قبل الفجر ، لما رواه أحمد وأصحاب السنن عن أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (من لم يُجمع الصيام قبل الفجر ، فلا صيام له) . أى : من لم يحكم النية ويعزم على الصيام قبل الفجر فلا صيام له .

ويرى الأحناف : جواز وقوع النية للصوم حتى وقت الضحى .

ويرى المالكية : أن نية واحدة لصيام الشهر كله فى أوله تكفى ، فقد قالوا : (وتكفى النية الواحدة فى كل صوم يجب تتابعه كصيام رمضان ، وصيام كفارته ، وكفارة القتل ، أو الظهار ، ما دام لم ينقطع تتابعه . . .) وهذا الوجوب للنية إنما هو بالنسبة للصيام المفروض ، أما صيام التطوع ، فتكتفى فيه النية ولو بعد طلوع النهار ، فقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل عليها ذات يوم فقال : « هل عندكم من شيء ؟ قلنا : لا . . قال : فإنى صائم » . .

هذا ، ويندب التلفظ بالنية ، ليدل اللسان على ما فى القلب .

وأجمع العلماء على أن صوم رمضان مفروض على كل مسلم بالغ عاقل ، خال من الأعذار التى تبيح له الفطر سواء أكان ذكرا أم أنثى .

أما الاسلام ، فلأنه أساس التكليف ، وأما البلوغ فلأنه الوقت الذى يبدأ فيه التكليف ، وهذا لا يمنع من أن يُعَوِّدَ الآباء أبناءهم على الصيام قبل سن البلوغ ، حتى يتعودوه .

فقد أخرج الشيخان عن الرُّبَيِّع بنت مُعوِّذ قالت : « أرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار . . من كان أصبح صائما فليتم صومه . ومن كان أصبح مفطرا فليصم بقية يومه ، فكنا نصومه بعد ذلك ، وَنُصَوِّمُ صبياننا الصغار منهم ، ونذهب إلى المسجد ، فنجعل لهم اللعبة من العِهْن ـ أى : من الصوف ـ فاذا بكى أحدهم على الطعام ، أعطيناها إياه . . . » .

وأما العقل ، فلأن به التمييز والادراك للأمور ، ومن فقد عقله كان فاقدا للتمييز والادراك السليم للأمور .

ففى الحديث الشريف الذى أخرجه أحمد وأبو داود والترمزى عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (رفع القلم عن ثلاثة ؛ عن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحلم » .

وأما الخلو من الأعذار ، فلأن من فضل الله تعالى على عباده ، أن رفع الصوم عن أصناف منهم ، تارة على سبيل الوجوب كالحائض والنفساء . . وتارة على سبيل الرخصة كالمريض والمسافر .

قال تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام آخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . . . » .

الأعذار المبيحة للفطر

والشريعة الاسلامية أقامها الله تعالى على أصول ثابتة وقواعد حكيمة ، منها :

أن هذه الشريعة من أبرز مزاياها وخصائصها : اليسر والسماحة ، ورفع الحرج ، ومن الآيات التى تؤيد ذلك قوله ـ سبحانه ـ : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ».

وقوله تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم ، لعلكم تشكرون ».

وقوله عز وجل : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا ».

ومن الأحاديث التى وَضَّحَ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها ، أن هذا الدين مبنى على اليسر لا على العسر ما أخرجه البخارى ـ رحمه الله ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله ليه وسلم ـ قال : « إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا . . ».

ومن مظاهر اليسر والسماحة فى شريعة الاسلام ، أن الله تعالى فرض صوم شهر رمضان على كل مسلم ، بالغ ، عاقل ، صحيح ، مقيم . . . إلا أنه ـ سبحانه ـ فضلا منه وكرما ، أباح لبعض عباده ـ بل وأوجب عليهم ـ الفطر ، لظروف تضطرهم إلى ذلك . . . وأصحاب الأعذار المبيحة للفطر أنواع :

أ ـ فمنهم الذين يرخص لهم فى الفطر ، وعليهم القضاء ،

وهؤلاء هم المرضى الذين يرجى برؤهم من مرضهم ، وشفاؤهم من عللهم ، إلا أنهم يخافون بسبب صومهم زيادة مرضهم ، أو تأخر شفائهم ، وكان هذا الخوف بسبب غلبة الظن ، أو التجربة ، أو أخبار الطبيب الثقة .

قال بعض العلماء : الأعذار التى تبيح للصائم الفطر كثيرة : منها المرض ، فاذا مرض الصائم وخاف بسبب الصوم زيادة المرض أو تأخير البرء ، أو حصول مشقة شديدة ، جاز له الفطر ـ بل قال الحنابلة : يسن الفطر فى هذه الأحوال ويكره الصوم .

أما إذا غلب على ظنه الهلاك بسبب الصوم ، أو الضرر الشديد ، كتعطيل حاسة من حواسه وجب عليه الفطر » .

قال تعالى : « ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

وقال صاحب فقه السنة : والصحيح الذى يخاف المرض بالصيام يفطر مثل المريض ، وكذلك ممن غلبه الجوع أو العطش فخاف الهلاك ، لزمه الفطر ، وإن كان صحيحا مقيما ، وعليه القضاء .

قال تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » وقال سبحانه : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » واذا صام المريض وتحمل المشقة ، صح صومه ، إلا أنه يكره له ذلك لأعراضه عن الرخصة التى يحبها الله تعالى ، وقد يلحقه بذلك ضرر » .

● ● ●

ب ـ وأيضا من الذين يرخص لهم الفطر وعليهم القضاء .

المسافرون سفرا يبيح لهم قصر الصلاة ، قال صاحب الفقه على المذاهب الأربعة ما ملخصه : ومن الأعذار المبيحة للفطر

السفر ، بشرط أن يكون سفرا يبيح قصر الصلاة ـ كأن يكون السفر لمسافة تصل إلى حوالى ثمانين كيلو مترا وبشرط أن يشرع المسافر فى هذا السفر قبل طلوع الفجر .

وزاد الشافعية شرطا ثالثا لجواز الفطر فى السفر ، وهو ألا يكون الشخص مديما للسفر . . فإن كان مديما له حرم الفطر عليه ، الا اذا لحقه بالصوم مشقة ، كالمشقة التى تبيح التيمم فيفطر ، فإن كان السفر لا يبيح قصر الصلاة ، لم يجز له الفطر ، فاذا شرع فى السفر بعد طلوع الفجر ، حرم عليه الفطر ، فلو أفطر فعليه القضاء .

ويجوز الفطر للمسافر الذى بَيَّتَ النية بالصوم ولا اثم عليه ، وعليه القضاء .

وقال الحنفية : يحرم الفطر على من بيت نية الصوم فى سفره ، واذا أفطر فعليه القضاء دون الكفارة

وقال المالكية : عليه القضاء والكفارة . . .

وقد وردت أحاديث متعددة ، تدل على أن بعض الصحابة كان يفطر فى السفر ، وبعضهم كان يصوم دون أن يلوم بعضهم بعضا .

ومن هذه الأحاديث ما رواه الامام مسلم فى صحيحه عن حمزة الأسلمى ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : يا رسول الله ، أجد من نفسى قوة على الصوم فى السفر ، فهل على جناح ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (هى رخصة من الله تعالى فمن أخذ بها فحسن . ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه) .

وروى أبو داود والترمذى عن أنس قال : (سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم .

وفى رواية : (فكانوا يرون أن من وجد قوة فصام حسن ،

ومن وجد ضعفا فأفطر فحسن . هذا ، وقد اختلف الفقهاء فى أى الأمرين أفضل . فجمهور الفقهاء على أن الصيام أفضل لمن قوى عليه ، والفطر أفضل لن لا يقوى عليه .

وقال الامام احمد بن حنبل : الفطر أفضل) .

والذى نراه : أن الله تعالى قذ أباح الفطر فى رمضان بسبب المرض أو السفر ، لأن كلا منهما مظنة المشقة والحرج . والحكم الشرعى يوجد حيث توجد مظنته ، وينتفى حيث ينتفى ، وعلى المسلم أن يقدر حال نفسه ، فاذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره ، ليس فى الصوم معه مشقة أو عسر ، صام عملا بقوله تعالى : (وأن تصوموا خير لكم) . واذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره يجعل الصوم شاقا عليه ، أفطر عملا بقوله تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) فالمسألة ترجع الى ضمير الفرد ودينه ، واستفتاء قلبه .

●●●

أما النوع الثانى من أصحاب الاعذار المبيحة للفطر ، فهم الاشخاص الذين تقدمت بهم السن ، كالشيخ الكبير والمرأة العجوز ، أو الاشخاص الذين أصيبوا بأمراض لا يرجى شفاؤهم منها ، وحكم الأطباء الثقات بذلك .. فهؤلاء يرخص لهم فى الفطر ، وتجب عليهم الفدية .

قال بعض العلماء : ومن الأعذار المبيحة للفطر كبر السن ، فالشيخ الهرم الفانى ، الذى لا يقدر على الصوم فى جميع فصول السنة ، يفطر وعليه عن كل يوم فدية طعام مسكين .. ومثله المريض الذى لا يرجى برؤه ، ولا قضاء عليهما لعدم القدرة على الصيام ...

أما الجوع والعطش الشديدان ، اللذان لا يقدر الشخص معهما على الصوم ، فيجوز لمن حصل له شىء من ذلك الفطر وعليه القضاء ...

وقال فضيلة الشيخ سيد سابق : يرخص الفطر للشيخ الكبير ، والمرأة العجوز ، والمريض الذى لا يرجى برؤه ، وأصحاب الأعمال الشاقة ، الذين لا يجدون متسعا من الرزق غير ما يزاولونه من أعمال . . هؤلاء جميعا يرخص لهم فى الفطر اذا كان الصيام يجهدهم ويشق عليهم مشقة شديدة ، فى جميع فصول السنة ، وعليهم أن يطعموا عن كل يوم مسكينا . وقدر ذلك بنحو صاع : أى قدح وثلث ـ أو نصف صاع ، أو مد ، على خلاف فى ذلك ، ولم يأت من السنة ما يدل على التقدير .

قال ابن عباس : رخص للشيخ الكبير أن يفطر ، ويطعم عن كل يوم مسكينا ولا قضاء عليه .

●●●

والنوع الثالث من أصحاب الأعذار المبيحة للفطر يتمثل فى المرأة الحامل والمرأة المرضع ، فانهما اذا خافتا الضرر من الصيام على أنفسهما وولدهما معا ، أو على أنفسهما فقط ، أو على ولدهما فقط ، فانهما فى هذه الاحوال يباح لهما الفطر ، وعليهما الفدية ولا قضاء عليهما ، وهذا رأى ابن عمر وابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ

ويرى الأئمة الأربعة أنه يجوز لهما الفطر ، ويجب عليهما القضاء عند القدرة على ذلك ، ولا فدية عليهما . . الا أن المالكية قالوا : لافدية على الحامل بخلاف المرضع فعليها الفدية . وقال الشافعية والحنابلة عليهما الفدية والقضاء معا ، فى حالة ما اذا كان الخوف على ولدهما فقط ، أما اذا كان الخوف على أنفسهما وولدهما أو على أنفسهما فقط ، فلهما أن يفطرا وعليهما القضاء فحسب .

●●●

أما النوع الرابع من أصحاب الأعذار فيتمثل فى النساء

الحائض والنفساء ، وهؤلاء يجب عليهن الفطر ويحرم عليهن الصيام ، ولو صمن فصومهن باطل ، وعليهن القضاء للأيام التى أفطرنها .

أخرج الشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت : (كنا نحيض على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنؤمر بقضاء الصوم ، ولا بقضاء الصلاة .

واذا طهرت المرأة الحائض أو النفساء خلال النهار ، فعليها أن تمسك عما يفطر الى غروب الشمس ، احتراما لشهر رمضان . ومثلها كل من زال عذره فى أثناء النهار ، كالمسافر اذا وصل الى بلده ، وكالمريض اذا شفى من مرضه ، وكالمجنون اذا زال ما به من جنون .

فى ضوء الحديث النبوى

- الصيام الكامل .. والمقبول .
- صيام التطوع .. أنواع .
- صيام داود .. افضل .
- الأيام العشر .. ما هى .
- يوم عاشوراء .. فى الجاهلية والاسلام .
- ليس لرجب .. صيام !!.
- يوم الجمعة .. ويوم المهرجان .
- صيام يوم العيد . حرام .

يكتب هذا الفصل :
د . أحمد عمر هاشم

الصيام الكامل .. والمقبول

لقد وضح الرسول صلى الله عليه وسلم مكانة شهر رمضان ، ببيان ما تميز به من خصوصيات أشار القرآن الكريم إليها : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ».

ففيه أنزل القرآن ، وفيه ليلة خير من ألف شهر ، وهى ليلة القدر ومن أعظم علامات الرحمة والخير فيه : تفتيح أبواب الجنة واغلاق أبواب النار وتسلسل الشياطين . .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصُفِدَتْ الشياطين » رواه مسلم .

وقد رأى العلماء أن تفتيح أبواب الجنة واغلاق أبواب النار وتصفيد الشياطين ، على ظاهره وحقيقته ، وتكون هذه الأمور علامة لدخول الشهر ، وتكريما له ، وفى حبس الشياطين فى شهر رمضان كفّ لهم عن إيذاء المؤمنين .

وهناك وجه آخر أن يكون فتح أبواب الجنة اشارة إلى كثرة الثواب ، واغلاق أبواب النار إشارة إلى العفو ، وتصفيد الشياطين إشارة إلى قلة اغوائهم . فكأن حالهم أشبهت حال المصفدين ، ويكون هذا التصفيد خاصا بناس دون ناس ، وعن أمور دون أمور ، ويؤيد هذا الرواية الثانية : « وفتحت أبواب الرحمة ». وجاء فى حديث آخر : « صفدت مردة الشياطين ».

أو أنه اطلق المسَّبب وهو تفتيح أبواب الجنة واغلاق أبواب النار وتصفيد الشياطين وأراد السبب وهو فعل الطاعات وعمل الخيرات والكف عن المعاصى والسيئات .

وإنما يستشعر كل هذا من صام صوما حقيقيا لا زور فيه ولا غيبة ولا نميمة ولا ذنب ، بل يتحلى الصائم بمكارم الأخلاق . .

وقال بعض العلماء : يحتمل أن يكون المراد أن الشياطين هم مسترقو السمع منهم وأن تسلسلهم يقع فى ليالى رمضان لأنهم كانوا منعوا فى زمن نزول القرآن من استراق السمع فزيدوا التسلسل مبالغة فى الحفظ .

وقال بعض العلماء : فائدة فتح أبواب السماء توقيف الملائكة على استحماد فضل الصائمين وأنه من الله بمنزلة عظيمة .

وهكذا يتضح مما سبق ما لهذا الشهر الكريم ، من منزلة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى ، وأنه أفضل الشهور ، واستدل بعض العلماء بهذا الحديث على أن الجنة فى السماء .

كما استنتج العلماء من هذا الحديث مضاعفة الأجر وتنزل رحمات الله تعالى على عباده الصائمين فى شهر رمضان ، وعلى المؤمنين أن يعتنموا الأوقات المباركة بكثرة العبادة وزيادة الطاعة .

● ● ●

ولا يكون الصائم كامل الصوم مقبولا عند ربه سبحانه وتعالى إلا إذا صام صوما حقيقيا وتاما ، بأن كف جوارحه وشهواته وأمتنع عن المفطرات وعن المعاصى ما ظهر منها وما بطن وامتنع عن الزور وعن العمل به .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » رواه البخارى .

والمراد بقول الزور : الكذب ، روى ليث بن مجاهد :

خصلتان يفسدان الصيام : الغيبة والكذب .

والذى يكف عن الطعام والشراب فيجوع ويعطش ولكنه لا يكف نفسه عن الغيبة أو الزور أو العمل به ولا يحفظ جوارحه عن الآثام أو يصوم ويفطر على الحرام أو على لحوم الناس بالغيبة ونحوها ، هذا الانسان لا يجنى من صيامه إلا الجوع والعطش ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » رواه النسائى وابن ماجه .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من صام رمضان وعرف حدوده وتحفظ مما ينبغى له أن يتحفظ منه كَفَّر ما قبله » رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا صمتَ فليصم سمعك وبصرك ولسانك ويدك » .

إن الصيام بهذا المعنى يكون كاملا مقبولا ، يتكفل الله سبحانه وتعالى بجزاء الصائمين كما جاء فى الحديث « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .

إن الصيام أمانة يجب على المؤمن أن يؤديها على أكمل وجه وأتمه وأن يصون صيامه من كل ما يبطله أو ينقص ثوابه ، وأن يتحاشى قول الزور والعمل به ، وأن يتخلى عن الرذائل ويتحلى بالفضائل ليستحق أن يتكفل الله بجزائه ، وأن يثمر صيامه أعظم الثمرات .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من

الريح المرسلة » رواه البخارى .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه أجود الناس ، والجود : هو اعطاء ما ينبغى لمن ينبغى ، وهو أعم من الصدقة .

وفى حديث آخر عن أنس رضى الله عنه : « كان النبى صلى الله عليه وسلم أشجع الناس وأجود الناس ».

وبعد أن وضح الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس مطلقا ، أشار بعد ذلك إلى أن جوده وعطاءه وبذله صلوات الله وسلامه عليه فى شهر رمضان أكثر من غيره من الشهور .

فبعد بيان أنه أجود الناس وجوده أفضل من جود غيره مطلقا ، وضح أن جوده فى شهررمضان يفضل جوده فى سائر الأوقات ، لأن شهر رمضان هو موسم الخيرات ولأن نعم الله سبحانه وتعالى على عباده فيه زائدة على غيره ، وهى فى هذا الشهر أكثر من غيره ، فكان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يؤثر متابعة سنة الله فى عباده .

وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن معنى مدارسة القرآن : قراءته بالتناوب على سرعة ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتناوب القراءة مع جبريل عليه السلام ، بأن يقرأ هذا بعضا من القرآن ، ويقرأ الآخر البعض ، أو يتشاركان فى القراءة معا .

أما الحكمة فى مدارسة القرآن ، فهى أنها تجدد العهد بمزيد غنى النفس ، والغنى سبب الجود ، ولأن هذا الشهر المبارك هو موسم الطاعات والخيرات ونعم الله فيه لا تحصى .

وجوده صلى الله عليه وسلم فى شموله وعمومه يشمل كثيرا من الوجوه والمنافع ، وأن الجود مع كثرته سريع كالريح المرسلة ، بل إن جوده صلوات الله وسلامه عليه أكثر من

الريح المرسلة سرعة ، ووصف الريح بالمرسلة اشارة إلى دوام هبوبها بالرحمة ، وإلى عموم النفع بجوده كما تعم الريح المرسلة جميع ما تهب عليه .

وورد عند الامام احمد فى آخر هذا الحديث : « لا يُسأل شيئا إلا أعطاه ».

وفى الصحيح من حديث جابر رضى الله عنه : ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا .

ومعلوم أن رسول الله صى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة الذى يجب على أمته أن تقتدى به كما قال الله جل شأنه :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ».

فعلينا أن نقتدى برسولنا صلوات الله وسلامه عليه فى الانفاق والمزيد من الجود فى شهر رمضان .

صيام التطوع .. أنواع

ومن الأيام التى يستحب صيامها صيام ستة أيام من شهر شوال . . عن أبى أيوب رضى الله عنه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

«من صام رمضان ثم أتبعه ستا من شوال فذاك صيام الدهر» رواه مسلم وأبوداود .

وإنما كان له أجر من صام الدهر ، لقول الله تعالى : «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» فإذا كانت الحسنة بعشر أمثالها فشهر رمضان يعدل صيامه مع فضل الله تعالى بذلك عشرة أشهر ، كما تعدل الأيام الستة من شهر شوال شهرين ، لأن الحسنة بعشر أمثالها ، فمجموع ذلك عام كامل .

وأيضا لما روى عن ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من صام رمضان وستة أيام بعد الفطر كان تمام السنة « من جاء بالحسنة فله عشر امثالها» رواه ابن ماجه .

وقد استحسن بعض الأئمة ، ان تصام هذه الأيام متوالية عقب يوم عيد الفطر .

فإن فرّق الأيام أو أخر بعضها أو كلها عن أوائل شهر شوال الى آخره حصلت فضيلة المتابعة ، لأنه يصدق أنه أتبعه ستا من شهر شوال . ومعنى الحديث :

أن الذى يصوم هذه الأيام من شهر شوال يشبه صيامه صيام الدهر (فذاك صيام الدهر) أى أنه . . يشبهه فيما لو صام انسان الدهر دون مضاعفة الأجر ، فإنه يحسب له يوم صومه يوما واحداً ، أما مع مضاعفة الأجر ، فيحسب كل يوم بعشرة أيام والله ذو الفضل العظيم .

والمراد بكونه يوازى أو يشبه صيام الدهر ، إنما هو لمن واظب على صيام شهر رمضان وستة أيام من شهر شوال فى كل سنة ، فكأنما صام طول حياته ، لأن الحسنة بعشر أمثالها . ففى كل عام كأنه صامه ، وأما من صام رمضان وصام ستا من شهر شوال سنة واحدة ، فهذا كأنما صام سنة واحدة وليس الدهر كله ، لأن الحسنة بعشر امثالها ، فمن صامها فى سنة فكأنما صام السنة، ومن واظب عليها وصامها الدهر فكأنما صامَ الدهر كله أى عمره الذى عاشه كله .

والحكمة فى مشروعية صيام الأيام من شهر شوال انها تجبر النقص الذى قد يحدث فى صيام رمضان .

وعن مالك : أنه يكره صوم هذه الأيام من شهر شوال ، حذراً من اعتقاد وجوبها ، وأن يُلحق برمضان ماليس منه .

وهذا هو السبب فى كراهية الامام مالك لصيامها ، فإذا لم يظن ذلك ، وصامها من صامها ، رغبة لما ورد فيها من الأحاديث والفضل والأجر ، فإنها مستحبة فى شأنه وله ثوابها وأجرها .

أما بالنسبة لصيام الأيام البيض فقد ذهب بعض العلماء الى تعيين الأيام الثلاثة التى يستحب صيامها من كل شهر بأنها فى أول الشهر العربى ، وذهب آخرون الى أنها فى آخر الشهر .

ولكن المعتمد من الآراء . أنها الأيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر ، والخامس عشر .

والأصح فى معنى الأيام البيض ، أن المراد بها الليالى التى يكون فيها القمر من أول الليل الى آخره ، وهى تلك الأيام الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، لأن ليلها ونهارها أبيضان .

وفى الحديث : «ثلاث من كل شهر ورمضان الى رمضان فهذا صيام الدهر كله» .

وأما ماروى عن معاذة العدوية انها سألت عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ؟

قالت : نعم . فقلت لها . . من أى الشهر كان يصوم ؟

قالت : لم يكن يبالى من أيام الشهر يصوم .

فلعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يواظب على صيام ثلاثة أيام معينة من كل شهر حتى لايظن أنها معينة ، ولكنه قد نبه بحديث آخر على سرة الشهر فى قوله لعمران بن حصين : (أو قال لرجل وهو يسمع) يافلان أصمت من سرة هذا الشهر ؟ قال : لا . . قال : فإذا أفطرت فصم يومين .

قال النووى : فكأنه يقول : يستحب أن تكون الأيام الثلاثة من سرة الشهر وهى وسطه ، وهذا متفق على استحبابه ، وهو استحباب كون الثلاثة هى الأيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر وقيل : هى الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر .

وقال أبو ذر الغفارى رضى الله عنه : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصوم من الشهر ثلاثة أيام ، البيض : ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة ، وقال : هى كصوم الدهر .

والأمر فى هذا الحديث ليس للوجوب ، بل هو للاستحباب ، لأنه لم يجب الا صيام شهر رمضان والقضاء ، والنذر ، والكفارات .

وهناك استحباب لصيام ثلاثة ايام من كل شهر غير الأيام البيض ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يوزعها .

قالت السيدة حفصة رضى الله عنها .. «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم ثلاثة أيام من الشهر .. الاثنين والخميس والأثنين ، من الجمعة الأخرى» .

وأحيانا كان عليه الصلاة والسلام يصوم غير الأيام البيض ثلاثة أيام معينة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من الشهر السبت والاحد والاثنين ، ومن الشهر الآخر الثلاثاء والأربعاء والخميس .

وقال الحافظ فى الفتح : وهو أشبه ، وانما فعل هذا النبى صلى الله عليه وسلم مراعاة للعدالة بين الأيام ، وإنما لم يصم الأيام الستة متوالية كى لا يشق على الأمة الاقتداء به رحمة بهم .

وهكذا نرى استحباب صيام الأيام البيض وهى ذات الليالى المقمرة من وسط الشهر ، واستحباب ثلاثة أيام من كل شهر غير البيض وكان يوزعها ، حتى تظل الأيام متصلة بالعبادة ، ويفرقها حتى لايكون هناك حرج ولا مشقة لمن يريد من أمته أن يقتدى به صلى الله عليه وسلم .

صيام داود .. افضل

هذا النوع من الصيام ، وهو صيام يوم وإفطار يوم هو المعروف بصيام سيدنا داود عليه السلام ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(كيف من يصوم يوما ويفطر يوما) ؟ قال : «ذاك صوم داود ـ عليه السلام ـ» .

وهذا الصوم هو أفضل أنواع الصيام لمن يستطيع القيام به ، لأنه ورد وصفه بأنه أحب الصيام ، حيث قال صلى الله عليه وسلم .

«أحب الصيام الى الله صوم داود كان يصوم يوما ويفطر يوما» .

وقال صلى الله عليه وسلم لعبدالله عمرو بن العاص : صم يوما وأفطر يوما وذلك صيام داود عليه السلام ، وهو أعدل الصيام .

وقال : قلت : فإنى أطيق أفضل من ذلك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا أفضل ذلك) قال عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما : «لأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احب الىّ من أهلى ومالى» .

وللعلماء فى هذا النوع من الصيام آراء . .

فذهب بعضهم الى أن صوم يوم وإفطار يوم أفضل من السرد لظاهر هذا الحديث .

وذهب آخرون الى تفضيل السرد وتخصيص هذا الحديث بعبد الله بن عمر ومن فى معناه أى ممن تتناسب احوالهم وظروفهم مع هذا المقدار من الصوم فكأن تقدير الكلام (لا أفضل من هذا فى حقك) .

ومما يؤيد هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يَنْه حمزة بن عمرو عن السرد ، وأرشده الى يوم ويوم ، ولو كان أفضل فى حق كل الناس لأرشده إليه وبينه له ، فإن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز .

وصيام يوم وإفطار يوم أحب الصيام وأفضل الصيام ، لأنه يجمع بين العمل الكثير وبين تمكن العبد من أدائه حيث يصوم ثم يفطر ليتقوى ، ثم يصوم ثم يفطر ، وهكذا فلم يتابع الصيام دائما فيشق على نفسه ولم يتابع الفطر دائما فيتعود عليه ، وهذا النوع مع ما فيه من جهد إلا أنه لا يمكن أن يعتاده إلا أصحاب العزائم القوية ، ومثل هذا الصيام يمكن لصاحبه أن يقوم بأداء حق نفسه وأهله وزائره أيام فطره . . أما الذى يتابع الصوم فلا يمكنه ذلك .

وعن أبى سلمة بن عبدالرحمن عن عبدالله بن عمرو قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أخبرت أنك تقوم الليل وتصوم النهار .

قال : قلت يا رسول الله : نعم .

قال : فصم وأفطر ، وصل ونم فإن لجسدك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا وإن لِزَوْرِك عليك حقا ، «أى الضيف الذى يزورك» وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام .

قال : فشدّدت فشدَّد عليّ . . قال : فقلت يا رسول الله : إنى أجد قوة .

قال : فصمّ من كل جمعه ثلاثة أيام .

قال : فشدّدت فشدّد عليّ قال فقلت يارسول الله : إنى أجد قوة :

قال صم صوم نبى الله داود ولا تزد عليه .

قلت : يا رسول الله ما كان صيام داود عليه الصلاة والسلام ؟

قال : كان يصوم يوما ويفطر يوما .

وهذا فى حق القادر عليه المستطيع ، وأما غير القادر ، فعليه أن يأتى من العمل ما يطيقه ، وأحب الأعمال الى الله أدومها وإن قل .

وعن الصوم فى الأشهر الحرم ، فاننا نود أن نشير أولا الى قوله تعالى : «إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين» .

توضح الآية الكريمة من سورة التوبة عدد الشهور عند الله تعالى فى شرعه وحكمه وهو اثنا عشر شهرا ، كتبها سبحانه عنده فى اللوح المحفوظ يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة شهور محرمة .

وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب .

وانما سميت بالأشهر الحرم ، لأنها يحرم فيها القتال فهى

معظمة محترمة ، وتضاعف فيها العبادات ذلك الشرع القيم العظيم والمستقيم ، فلا تظلموا فى هذه الأشهر المحرمة أنفسكم بارتكاب ما حرم الله تعالى .

وعن أبى بكرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات ذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان» .

وانما سمى برجب مضر لأن ربيعة كانت تحرم بالحج فى رمضان وتسميه رجبا ، فبين النبى صلى الله عليه وسلم أنه رجب مضر لا رجب ربيعة .

وقد وردت أحاديث فى فضل صيام شهر المحرم منها : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل» .

وفى هذا الحديث تصريح بأن شهر المحرم هو أفضل الشهور للصوم .

وفى شأن شهر رجب روى عن عثمان بن حكيم الأنصارى قال : سألت سعيد بن جُبير عن صوم رجب ونحن يومئذ فى رجب فقال : سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم» .

قال الامام النووى رحمه الله تعالى : «الظاهر أن مراد سعيد

بن جبير بهذا الاستدلال أنه لا نهى عنه ، ولا ندب فيه لعينه ، بل له حكم باقى الشهور».

ولكن للأشهر الحرم فضيلتها فقد ندب الرسول صلى الله عليه وسلم الى صيامها من ذلك ماروى عن مُجيبَه الباهلية عن أبيها أوعمها أنه أتى رسول الله صلى الله علَيه وسلم ، ثم انطلق فأتاه بعد سنة وقد تغير حاله وهيئته فقال : يا رسول الله : أما تعرفنى ؟

قال : ومن أنت ؟

قال : أنا الباهلى الذى جئتك عام الأول .

قال : فما غَيِّرَكَ ؟ وقد كنت حسن الهيئة ؟

قال : ما أكلت طعاما منذ فارقتك إلا بليل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم عذبت نفسك ؟

ثم قال : صم شهر الصبر ، ويوما من كل شهر .

قال : زدنى فإن بى قوة

قال : صم يومين .

قال : زدنى

قال صم ثلاثة أيام .

قال : زدنى .

قال صم من الحُرُم واترك ، صم من الحرم واترك ، صم من الحرم ، واترك .

وقال بأصابعه الثلاثة فضمها ثم أرسلها .

والمراد بالحرم الأشهر الحرم وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب

وهكذا وجهه الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أراد زيادة على ثلاثة ايام من كل شهر فليصم من الأشهر الحرم ولا يوالى فيها الصيام أكثر من ثلاثة أيام ثم يفطر مثلها .

وهكذا يتضح لنا فضل الصيام فى الأشهر الحرم ، واستحبابه على ألا يزيد فى التتابع على ثلاثة أيام ثم يفطر مثلها كما فهم من ضم اصابعه الثلاثة وإرسالها صلى الله عليه وسلم .

الأيام العشرة ما هى ؟

وللصيام فى شهر ذى الحجة فضله ومكانته ، إنه من أنواع الصيام الذى يتطوع به العبد لربه مع ملاحظة تحريم صيام يوم العيد وأيام التشريق الثلاثة .

وللأيام العشرة من شهر ذى الحجة فضلها.عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ما العمل فى أيام أفضل من العمل فى هذه قالوا ولا الجهاد ؟ قال : ولا الجهاد إلا رجل يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء» .

والمراد بالعشر هى العشر الأولى من شهر ذى الحجة ومعلوم أن اليوم العاشر وهو يوم العيد خارج من عبادة الصيام اذ يحرم صومه ، ولكنه داخل فى سائر العبادات الأخرى من صلاة وتكبير وتحميد وتهليل وذكر وإطلاق العشر عليها مع تحريم صوم يوم العيد محمول على الغالب وإذا أطلقت الأيام دخلت فيها الليالى كذلك تبعا.وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بها فى قوله : «والفجر وليال عشر» قال المفسرون : إن المراد بالعشر فى الآية الكريمة عشر ذى الحجة ، قيل المراد بالعشر العشر الأولى من المحرم حكاه أبو جعفر ابن جرير ، وروى عن ابن عباس «وليال عشر» قال : العشر الأول من رمضان .

والأصح ان المراد بها عشر ذى الحجة ، لما رواه جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إن العشر عشر الأضحى والوتر يوم عرفه والشفع يوم النحر» .

والحديث جابر فى صحيحى أبى عوانة وابن حبان : «مامن أيام أفضل عند الله من أيام عشر ذى الحجة» .

وعن بعض امهات المؤمنين قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم تسع ذى الحجة ويوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر والاثنين من الشهر ، والخميس» .

ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولا الجهاد ؟ قال عليه الصلاة والسلام : ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء .

أى إلا من خرج مجاهدا فى سبيل الله محتملا للمشقة مخاطرا بالنفس والمال باذلا لهما فلم يرجع بماله أو لم يرجع بنفسه أو لم يرجع بهما بأن ذهب ماله واستشهد وهذا يدل على فضل تلك الأيام لأنها أيام يغفل الناس عنها فى العبادة .

أما يوم عرفة فهو اليوم التاسع من شهر ذى الحجة ، وسمى بيوم عرفة ، لأن الوقوف بعرفة يقع فى هذا اليوم للحجاج ، وقيل سمى بعرفه ، لأن ابراهيم عليه السلام أرى فى المنام ليلة التروية أنه يؤمر بذبح ابنه فأصبح يومه يتروى هل هذا من الله أو حلم فسمى يوم التروية .

وقيل : لأنهم كانوا يحملون الماء فيه ويرتوون ويروون أنعامهم ودوابهم .

فلما كانت الليلة الثانية رآه أيضا فأصبح يوم عرفه فعرف أنه من الله ، فسمى يوم عرفه .

وقد ورد فى هذا اليوم أن صيامه يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده ، لما روى أبوقتادة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

«صيام عرفة انى احتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده» رواه مسلم .

وانما يستحب صيام يوم عرفه لغير الحاج ، أما الحجاج فيستحب لهم الفطر يوم عرفه ليتقووا على الذكر والدعاء .

ولكن كانت عائشة وابن الزبير يصومانه ، وقال قتادة : لا بأس به إذا لم يضعف عن الدعاء .

والأفضل : صيامه لغير الحاج ، والإفطار للحاج للتقوى على العبادة للأحاديث الواردة فى ذلك ، ولفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، عن أم الفضل بنت الحارث أن ناسا تماروا بين يديها يوم عرفه فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم : صائم ، وقال بعضهم ليس بصائم فأرسلت اليه بقدح من لبن ، وهو واقف على بعيره بعرفات فشربه النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن عمر حججت مع النبى صلى الله عليه وسلم فلم يصمه يعنى يوم عرفه ، ومع أبى بكر فلم يصمه ومع عمر فلم يصمه ومع عثمان فلم يصمه ، وأنا لا أصومه ولا آمر به ولا أنهى عنه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن صيام يوم عرفه بعرفة ، لان الصوم يضعفه ويمنعه الدعاء فى هذا اليوم المبارك الذى يستجاب فيه الدعاء ، والاكثارمن ذكر الله تعالى لأنه يوم ترجى فيه الإجابة ومن أجل هذا استحب فيه الفطر وعدم الصوم ليتقوى المؤمن على الدعاء .

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من يوم أكثر أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفه فإنه ليدنو عز وجل ثم يباهى بكم الملائكة فيقول : ما أراد هؤلاء» . رواه مسلم .

وفضل صيام هذا اليوم لغير الحاج ، يظهر بتكفير الله تعالى لذنوب الصائم فيه لسنة ماضية وسنة آتية بتوفيق الله تعالى له الى التوبة النصوح والبعد عن الذنوب ، والتوفيق الى صالح الأعمال .

وصيام شهر الله المحرم من أفضل الأوقات والشهور بعد شهر رمضان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل» .

وفى هذا الحديث تصريح بأن الصيام فى شهر الله المحرم أفضل من غيره بعد شهر رمضان وبأنه أفضل الشهور للصوم .

وقد جاء فى بعض الأحاديث ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكثر من الصوم فى شهر شعبان دون المحرم ، ولعل السبب فى ذلك أنه إنما علم فضله فى آخر حياته أو لعله كان يعرض فيه أعذار من سفر أو مرض أو غير ذلك من الأسباب الأخرى . وواضح أن لشهر المحرم مكانته كواحد من الأشهر الحرم ، وأيضا فلاختصاص الرسول صلى الله عليه وسلم له بهذه الفضيلة للعبادة فيه بالصوم.هذا الى جانب أن فى صيام المحرم اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم واتباعا لفعله الذى كانَ يفعله واستجابة لبيانه ، حيث بين أن صيام شهر المحرم أفضل الصيام بعد شهر رمضان .

والناس يتعارفون على الصوم فى يوم من أيام الشهر وهو يوم عاشوراء ، ويغفلون عن بقية أيامه . ولاشك ان العبادة والتقرب الى الله تعالى فى أيام الغفلة لها فضلها .

وقد قرن فضله بفضل صلاة الليل حيث قال صلوات الله وسلامه عليه (افضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم وافضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل) لأن صلاة الليل لا يعلمها إلا علام الغيوب، وهى بعيدة عن الرياء وحب الظهور ، بعيدة عن السمعة ، يظهر فيها الاخلاص ، وكذلك الصيام فى شهر المحرم فليس من الأيام المذكورة المشهورة بل كثيرا ما يغفل الناس عن الصيام فيه فكانت العبادة فيها من

التذكير والتدبر ، ومن الاخلاص الصادق ما فيها ، ومن هنا كان فضلها وفضل صيام هذا الشهر الذى حرم الله القتال فيه وجعله مباركا .

يوم عاشوراء .. فى الجاهلية

يوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم ، ويرى الجمهور وبعض الشافعية أنه لم يجب صوم قبل رمضان.ويرى الأحناف : أن أول ما فرض صوم يوم عاشوراء فلما نزل فرض صيام شهر رمضان نسخ فرض يوم عاشوراء . واستدلوا بظاهر حديث ابن عمر رضى الله عنهما : قال : « صام النبى صلى الله عليه وسلم عاشوراء وأمر بصيامه فلما فرض رمضان ترك ، وكان عبدالله لا يصومه إلا أن يوافق صومه » رواه البخارى .

وعن عائشة رضى الله عنها : أن قريشا كانت تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصيامه حتى فرض رمضان وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شاء فليصمه ومن شاء أفطره » رواه البخارى ومسلم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم يوم عاشوراء فى مكة قبل الهجرة ، وبعد أن هاجر الى المدينة ، وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فصامه وأمر بصيامه ، وهذا إنما كان عن وحى أو تواتر أو اجتهاد لا بمجرد إخبار الآحاد .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال : ما هذا ؟ قالوا هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله بنى اسرائيل من عدوهم فصامه موسى ، قال : فأنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه » رواه البخارى .

وفى رواية مسلم : هذا يوم أنجى الله فيه موسى وقومه وغرق فرعون وقومه .

ولما فرض صوم شهر رمضان فى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة نسخ وجود صوم يوم عاشوراء على مذهب أبى حنيفة وعلى مذهب غيره نسخ تأكيد استحباب صومه .

وقد روى فى فضل صيام يوم عاشوراء قوله صلى الله عليه وسلم : « وصيام يوم عاشوراء احتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله » رواه مسلم . أى أن صيام يوم عاشوراء يكفر ذنوب السنة السابقة .

واتفق العلماء على أن صيام يوم عاشوراء سنة ، أما فى أول الاسلام ، وقبل أن يشرع صيام رمضان ففى ذلك خلاف :

فيرى أبو حنيفة أن صوم يوم عاشوراء كان واجبا .

ويرى بعض أصحاب الشافعى أن صيام يوم عاشوراء سنة من يوم أن شرع وليس واجبا ولكنه متأكد الاستحباب ، فلما فرض صيام رمضان صار مستحبا دون الأول .

ويرى البعض انه كان واجبا . قال الامام النووى رحمه الله تعالى : وتظهر فائدة الخلاف فى اشتراط نية الصوم الواجب من الليل . فأبو حنيفة لا يشترطها ويقول كان الناس مفطرين أول يوم عاشوراء ثم أمروا بصيامه بنية من النهار ولم يؤمروا بقضائه بعد صومه . وأصحاب الشافعى يقولون : كان مستحبا فصحّ بنية من النهار ويتمسك أبو حنيفة بقوله : أمر بصيامه ، والأمر للوجوب وبقوله : فلما فرض رمضان قال : من شاء صامه ومن شاء تركه .

ويحتج الشافعية بقوله : هذا يوم عاشوراء ولم يكتب الله عليكم صيامه . .

ويوم عاشوراء له هذا الفضل وتلك المنزلة ، فهو اليوم الذى أظهر الله فيه موسى عليه السلام وبنى اسرائيل على فرعون فصامه موسى شكرا لله تعالى ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فنحن أحق بموسى » .

وقد وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوم عاشوراء يكفر السنة الماضية وهذا ما يرجوه الرسول صلى الله عليه وسلم ويترقبه ويعدّه عند الله ولا حرج على فضل الله فهو ذو رحمة واسعة .

وحتى لا يكون فى صيام يوم عاشوراء إتباع لأهل الكتاب فى تعظيمهم له استحب إضافة صيام بعض الأيام معه كاليوم التاسع والحادى عشر .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما صام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء وأمر بصيامه ، قالوا : يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى ؟ فقال : إذا كان العام المقبل - إن شاء الله - صمنا اليوم التاسع ، قال : « فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم » رواه مسلم وأبو داود .

وفى رواية أخرى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لئن بقيت الى قابل لأصومن التاسع » رواه أحمد ومسلم . أى يصوم اليوم التاسع من شهر المحرم مع اليوم العاشر ، وبهذا يتضح أن لصيام يوم عاشوراء صورا منها : صيامه مع صيام يوم قبله وهو التاسع ويوم بعده وهو اليوم الحادى عشر .

ومن ذلك أيضا : صيامه مع صيام يوم قبله وهو اليوم التاسع ومن ذلك : صيام يوم عاشوراء وحده .

ليس لرجب .. صيام

فى استحباب الصيام فى شهر رجب مشروعية على العموم ، وأخرى على الخصوص :

فأما مشروعية شهر رجب على العموم ، فلما روى من استحباب الصيام فى الأشهر الحرم ، وشهر رجب من هذه الأشهر .

وأما مشروعية صيام شهر رجب على الخصوص : فقد أخرج الطبرانى عن سعيد بن أبى راشد مرفوعا ، بلفظ : (من صام يوما من رجب فكأنما صام سنة ، ومَن صام منه سبعة أيام غلقت عنه أبواب جهنم ومن صام منه ثمانية أيام فتحت له ثمانية أبواب الجنة ، ومن صام منه عشرة أيام لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه ، ومن صام خمسة عشر يوما نادى مناد من السماء قد غفر لك ما مضى فاستأنف العمل. ومن زاد زاده الله) .

وحكى ابن السبكى عن محمد بن منصور السمعانى ، أنه قال : لم يرد فى استحباب صوم رجب على الخصوص سنة ثابتة والأحاديث التى تروى فيه واهية لا يفرح بها عالم .

والصيام فى شهر رجب لم يرد فيه نهى عن الصيام ، ولا ندب فيه لعينه بل له حكم الشهور الحرم . .

حدث عثمان بن حكيم الأنصارىُّ قال : سألت سعيد بن جبير عن صوم رجب ـ ونحن يومئذ فى رجب ـ فقال : سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : (كان رسول الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم) .

قال الامام النووى ـ رحمه الله تعالى ـ : الظاهر أن مراد

سعيد بن جبير بهذا الاستدلال أنه لا نهى عنه ، ولا ندب فيه لعينه بل له حكم باقى الشهور .

ولكن للأشهر الحرم فضيلتها ، فقد ندب الرسول صلى الله عليه وسلم الى صيامها ، وشهر رجب هو أحد هذه الشهور فيكون الصيام فيه على هذا مندوبا ضمن الأشهر الحرم .

من ذلك ما رواه أبو داود فى سننه قال : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن سعيد الجريرى عن أبى السليل عن مُجيبةَ الباهلية عن أبيها أو عمها أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم انطلق ، فأتاه بعد سنة وقد تغير حاله وهيئته فقال . يا رسول الله أما تعرفنى ؟

قال : وَمْن أنت ؟

قال : أنا الباهلى الذى جئتك عام الأول ، قال : فما غيرك وقد كنت حسن الهيئة ؟

قال : ما أكلت طعاما منذ فارقتك إلا بليل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لِمَ عذبت نفسك ؟ ثم قال : صم شهر الصبر ويوما من كل شهر .

قال : زدنى فإن بى قوة قال : صم يومين قال زدنى ، قال صم ثلاثة أيام قال زدنى قال : صم من الحرم وأترك ، صم من الحرم وأترك ، صم من الحرم وأترك ، وقال بأصابعه الثلاثة فضمها ثم أرسلها .

وقال الحافظ ابن حجر : « لم يرد فى فضله ـ أى شهر رجب ـ ولا فى صيامه ، ولا فى شىء منه معين ولا فى قيام ليلة مخصوصة منه حديث صحيح يصلح للحجة » .

وشهر الصبر المشار اليه فى الحديث السابق هو شهر رمضان والمراد بالحرم فيه : الأشهر الحرم وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية : وأما صوم رجب بخصوصه فأحاديث كلها ضعيفة بل موضوعه لا يعتمد أهل العلم على شيء منها ، وليست من الضعيف الذى يروى فى الفضائل بل عامتها من الموضوعات المكذوبات ، وأكثر ما روى فى ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل رجب يقول : (اللهم بارك لنا فى رجب وشعبان وبلغنا رمضان) وقد روى ابن ماجه فى سننه عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن صوم رجب وفى اسناده نظر ، لكن صح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يضرب أيدى الناس ليضعوا أيديهم فى الطعام فى رجب ويقول : (لا تشبهوه برمضان) .

كذلك أيضا تخصيص شهر رجب وشهر شعبان جميعا بالصوم أو الاعتكاف لم يرد فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم شيء ولا عن أصحابه ولا أئمة المسلمين ، وإنما الثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان فى شعبان أكثر صياما منه فى غيره ولكنه لم يثبت صيام رجب كله ولا صيام شعبان كله بأن يجمع الصائم صيام الأشهر الثلاثة كلها وهى رجب وشعبان ورمضان .

من كل ما سبق نخلص الى أن الصيام فى شهر رجب حكمه كحكم الصيام فى باقى الأشهر الحرم ؛ لأنه ورد أن للأشهر الحرم فضيلة ودعوة الى صيامها وليس لشهر رجب ـ على الانفراد ـ دون سائر الشهور صيام معين أو عبادة معينة أو نسك خاص بشهر رجب ، فمن شاء أن يصوم فى شهر رجب نفلا صام ، شريطة ألا يعتقد أن لشهر رجب على الانفراد عبادة خاصة .

أما عن الصيام فى شهر شعبان ، وقد سمى هذا الشهر بهذا

الاسم ؛ لتشعب الناس فيه طلبا للمياه أو الغارات بعد أن ينتهى شهر رجب الذى هو أحد الأشهر الحرم ، وهذا التعليل الثانى أرجح .

والصيام فى هذا الشهر مندوب ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر ، ويفطر حتى نقول : لا يصوم ، فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهر إلا رمضان وما رأيت أكثر صياما معه فى شعبان » .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يصوم معظم شهر شعبان وفى رواية فى صحيح مسلم : « كان يصوم شعبان إلا قليلا » .

وفى حديث يحيى بن أبى كثير فإنه كان يصوم شعبان كله ، وعند أبى داود وغيره أنه كان لا يصوم من السنة شهرا تاما إلا شعبان يصله برمضان .

والمعنى : أنه كان يصوم معظم شهر شعبان .

قال ابن المبارك : جائز فى كلام العرب إذا صام أكثر الشهر . أن يقول : صام الشهر كله ، فالمراد بالكل أكثر الشهر ، وحمل بعض العلماء معنى صيام شعبان كله على أنه كان يصوم شعبان كله تارة ، ويصوم معظمه تارة أخرى بألا يتوهم أنه واجب كله مثل شهر رمضان .

أو أن المراد بصيامه كله أنه كان يصوم من أوله تارة ، ومن آخره تارة أخرى ومن أثنائه طورا ، فلا يترك شيئا منه من غير صيام ولا يخص بعضه بصيام دون بعض .

وقال بعض العلماء : إما أن يحمل قول السيدة عائشة رضى الله عنها على المبالغة والمراد الأكثر ، وإما أن يجمع بأن قولها الثانى متأخر عن قولها الأول فأخبرت عن أول أمره أنه كان

يصوم أكثر شعبان ، وأخبرت ثانيا عن آخر أمره أنه كان يصومه كله .

● ● ●

والحكمة فى اختصاص شهر شعبان بكثرة الصيام فيه تنحصر فيما يأتى :

أولا : كان الرسول صلى الله عليه وسلم يشتغل عن صوم الثلاثة أيام من كل شهر لسفر أو غيره فتجتمع فيقضيها فى شعبان .

ثانيا : قيل كان يصنع ذلك لتعظيم شهر رمضان .

ثالثا : وقيل : لأن نساءه كن يقضين ما عليهن من شهر رمضان فى شهر شعبان .

رابعا : أنه يعقبه شهر رمضان وصومه فرض فكان يكثر من الصوم فى شعبان قدر ما يصوم فى شهرين غيره ، لما يفوته من التطوع بذلك فى أيام شهر رمضان .

خامسا : وأولى الحكم وأقواها فى السبب فى كثرة الصيام فى شهر شعبان ما جاء فى الحديث الآخر : عن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان ؟ قال : « ذلك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان ، وهو شهر ترفع فيه الأعمال الى رب العالمين فأحب أن يرفع عملى وأنا صائم » ونحوه من حديث عائشة عن أبى يعلى لكن قال فيه : إن الله يكتب كل نفس ميتة تلك السنة فأحب أن يأتينى أجلى وأنا صائم .

وروى الامام مسلم ـ بسنده ـ عن عمران بن حصين رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أو لآخر : أصمت من سرر الشهر ؟ قال : لا قال : فإذا أفطرت فصم يومين ، والمراد بالسرر : آخر الشهر سميت بذلك ؛ لاستسرار

القمر فيها ، وقيل : بل المراد بالسرر : وسط الشهر ؛ فإنها الأيام البيض ، قالوا : وسرار كل شيء وسطه وأفضله ، وعلى أن المراد بالسرر آخر شعبان ، فلا يكون ذلك مخالفا للأحاديث الصحيحة فى النهى عن تقدم رمضان بصوم يوم أو يومين إذ يجاب عن ذلك بأن هذا الرجل كان معتادا الصيام آخر الشهر أو نذره ، فتركه لخوفه من الدخول فى النهى عن تقدم رمضان ، فبين له النبى صلى الله عليه وسلم أن الصوم المعتاد لا يدخل فى النهى وإنما النهى عن الصوم فى آخر شعبان إذا كان غير معتاد له .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم : (ذلك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان) انه يستحب صوم رجب ؛ لأن الظاهر انهم يغفلون عن تعظيم شعبان بالصوم كما يعظمون رمضان ورجبا ، ويحتمل أن المراد غفلتهم عن تعظيم شعبان بصومه كما يعظمون رجبا بنحر النحائر فيه فإنه كان يعظم بذلك فى الجاهلية ، وينحرون فيه ، والظاهر الاحتمال الأول لأن المراد بالناس الصحابة. فإن الشارع كان محا آثار الجاهلية ولكن غايته التقرير لهم على صومه وهو لا يفيد زيادة على الجواز .

يوم الجمعة .. ويوم المهرجان

ان يوم الجمعة هو خير أيام الاسبوع ، وهو خير يوم طلعت فيه الشمس ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم عليه السلام ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة » .

ويوم الجمعة هو العيد الاسبوعى للمسلمين ، ولهذا ورد النهى عن صيامه ، فيكره أن يفرد هذا اليوم بالصوم ، إلا إذا وافق يوم الجمعة صيام يوم اعتاد صيامه كأن كان المسلم مثلا يصوم يوما ويفطر يوما ، فوافق يوم الصيام يوم الجمعة ، أو كان قد اعتاد أن يصوم أول يوم من الشهر وآخر يوم أو يوم نصف الشهر ونحو ذلك ، كما نص على ذلك الامام أحمد .

وقال أبو حنيفة ومالك : لا يكره إفراد الجمعة ؛ لأنه يومٌ فأشبه سائر الأيام ، ولكن رأى الجمهور أن صيام يوم الجمعة منهى عنه وأنه نهى كراهة ، وليس للتحريم ، ومن الأدلة على كراهة صيام يوم الجمعة :

عن عامر الأشعرى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن يوم الجمعة عيدكم فلا تصوموه إلا أن تصوموا قبله أو بعده » .

وكما لا يُكره صيام يوم الجمعة على الانفراد إذا صادف صيام يوم كان يتعوده كأول الشهر أو وسطه . كذلك لا يكره إذا صادف يوما من الأيام التى يستحب صومها مثل يوم عرفة أو يوم عاشوراء ، كذلك لا يكره صيام يوم الجمعة إذا صام يوما قبله أو يوما بعده ؛ لما ورد فى الصحيحين من حديث جابر

رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تصوموا يوم الجمعة إلا وقبله يوم أو بعده يوم » وفيما رواه مسلم : « . . ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام إلا أن يكون فى صوم يصومه أحدكم » وقال محمد بن عباد سألت جابرا : أنَهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم الجمعة ؟ قال : نعم » متفق عليه .

وعن جويرية بنت الحارث أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوم الجمعة وهى صائمة فقال : أصمت أمس ؟ قالت : لا قال : أتريدين أن تصومى غدا ؟ قالت : لا قال : « فأفطرى » . وفى هذا دلالة على أن النهى عن صيام يوم الجمعة إنما يكون فى حالة افراده بالصوم ، ففى الحديث السابق كان النهى عن صيام يوم الجمعة معلاً بكونها لم تصم أمَس ولا غدًا .

● ● ●

ويكره أن يخص أحدٌ يوم السبت بصيام ؛ وذلك لأن اليهود يعظمون يوم السبت .

ويرى كراهية يوم السبت منفردا الأحناف والشافعية والحنابلة ، وأما الامام مالك فقد جوّز صيام يوم السبت منفردا بلا كراهة .

ومما يدل على كراهة صيام يوم السبت ما روى عن عبدالله بن بُسْر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لاتصوموا يوم السبت إلا فيما إفترض عليكم . . .) .

وعن عبدالله بن بسر عن أخته الصماء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم فإن لم يجد أحدكم إلا لحاء عنب أو عود شجرة فليمضغه) .

والمكروه فى صيام يوم السبت هو إفراده بالصيام ، فإن صام معه غيره لم يكن صيامه مكروها لحديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وجويرية رضى الله عنها .

وكذلك إن صام يوم السبث فوافق صوما له اعتاده بأن كان قد تعود مثلا صيام يوم وإفطار يوم فوافق يوم صومه يوم السبت ، وكذا لو صادف مجىء يوم عرفه أو يوم عاشوراء يوم السبت .

كما يكره إفراد يوم النيروز ويوم المهرجان بالصوم لأنهما يومان يعظمهما الكفار ، فيكون تخصيصهما بالصيام دون غيرهما موافقة لهم فى تعظيمهما فكره صيامهما كيوم السبت ، ويقاس على هذا كل عيد للكفار أو يوم يفردونه بالتعظيم ، وإنما يظهر هذا فيما إذا كانوا يصومونه ، وأما إذا عظموه بغير الصيام ، فلا يكون من صامه متشبها بهم .

فالتشبه بالكفار فى عباداتهم أو تعظيمهم لبعض من الأيام غير جائز شرعا .

وبهذا يتضح أن يوم السبت جاءت كراهته لأنه يوم يعظمه اليهود ، فلا يصح أن يفرده المسلمون بالصيام حتى لا يكون فيه تشبه بهم .

● ● ●

ومن أنواع الصيام المستحب : صيام يوم الاثنين ، ويوم الخميس ، لما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس ، فقيل له ؟ فقال : « إن الأعمال تعرض كل اثنين وخميس فيغفر الله لكل مسلم أو لكل مؤمن إلا المتهاجرين فيقول : (أخّرْهُمَا) رواه أحمد .

أى أن الله تعالى يغفر لعباده إلا المتهاجرين، أى من كان بينهما هَجْرٌ بالخصومة أو العداوة والبغضاء ، وورد فى رواية الامام مسلم : (إلا رجلا كان بينه وبين أخيه شحناء فيقال : أنظروا هذين حتى يصطلحا ، أنظروا هذين حتى يصطلحا ، أنظروا هذين حتى يصْطَلحا) وكرر الجملة ثلاث مرات للتأكيد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصوم يوم الاثنين والخميس ، فسألته ، فقال : « إن الأعمال تعرض يوم الاثنين والخميس » رواه الدارمى .

وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله عليه وسلم قال : « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس فمن مستغفر فيغفر له ومن تائب فيُتاب عليه وَيُرَدُّ أهل الضغائن بضغائنهم حتى يتوبوا » أخرجه المنذرى ، ورواه أبو دواد وكما ذكر المنذرى رواته ثقات . فهذه الأحاديث توضح فضل يومَىْ الاثنين والخميس وأن صيامهما مستحب ، فإن الأعمال تعرض فيهما على الله تعالى وكان صيامهما مستحبا لفضلهما ، ولأن الأعمال تعرض فيهما فتعرض فى وقت الصيام الذى هو من أفضل العبادات ، فتكون المغفرة ، وفيما رواه الامام مسلم فى صحيحه من حديث أبى قتادة :

(وسُئل عن صوم يوم الاثنين قال : ذاك يوم وُلدتُ فيه ويوم بُعثت أو أُنزل علىّ فيه . .)

وفى هذا الحديث من رواية شُعْبَةَ قال : وسُئل عن صَوْمِ يوم الاثنين والخميس فسكتنا عن ذكر الخميس لِمَا نراه وَهْما .

وفى رواية أخرى عند مسلم عن أبى قتادة الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن صوم الاثنين فقال : فيه وُلدتُ ، وفيه أُنزل علىّ) .

وإنما جاء فى رواية شُعبه (فسكتنا عن ذكر الخميس) قال القاضي عياض إنما تركه وسكت عنه لقوله (فيه ولدت وفيه بعثت أو أنزل علىّ) وهذا إنما هو فى يوم الاثنين كما جاء فى الروايات الأخرى (يوم الاثنين) دون ذكر الخميس فلما كان فى رواية شعبة ذكر الخميس تركه مسلم لأنه رآه وهما ، قال القاضى : ويحتمل صحة رواية شعبة ويرجع الوصف بالولادة والإنزال - أى للوحى - الى الاثنين دون الخميس وفى هذا دلالة لفضل بعض الأيام على بعض واختصاص بعضها كيوم مولده بالصوم شكر الله تعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم كما يستحب لأمته شكرا لله تعالى على نعمة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى نعمة بعثته التى هى رحمة للعالمين .

صيام يوم العيد.. حرام

أجمع العلماء على تحريم صيام يوم عيدالفطر ، وتحريم صيام يوم عيدالأضحى ، سواء صامهما صوم نذر أو صامهما صوم تطوع أو صوم كفارة أو غير ذلك من أنواع الصيام ، فيحرم صوم يومى العيدين سواء كان صيام فرض أو صيام تطوع ، حتى ولو نذر صومهما لعينهما ، قال الشافعى والجمهور : لاينعقد نذره ولايلزمه قضاؤهما .

وقال أبو حنيفة : ينعقد النذر ويلزمه قضاؤهما قال : فإن صامهما أجزآ وخالف الناس كلهم فى ذلك وبمثل قول الامام أبى حنيفة قال المؤيد بالله والإمام يحيى :

وقال البعض : يصح النذر بصيامهما ويصوم فى غيرهما ولا يصح صومه فيهما ، وهذا اذا نذر صومهما بعينهما كما تقدم وإما إذا انذر صوم يوم الاثنين مثلا فوافق يوم العيد ، فقال النووى : لايجوز له صوم العيد بالاجماع قال : وهل يلزمه القضاء فيه خلاف للعلماء وفيه للشافعى قولان أصحهما : لا يجب قضاؤه ، لأن لفظه لم يتناول القضاء ، وإنما يجب قضاء الفرائض بأمر جديد على المختار .

وأما الحكمة فى النهى عن صوم العيدين فإن فى صيامهما إعراضا عن ضيافة الله تعالى لعباده كما صرح بذلك أهل الأصول .

فإن المؤمنين فى أيام الأعياد فى ضيافة رب العباد سبحانه وتعالى :

عن أبى سعيد رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انه نهى عن صوم يومين : يوم الفطر ويوم

النحر » .

وفى لفظ لأحمد والبخارى : لا صوم فى يومين . ولمسلم : لايصح الصيام فى يومين . هذا إلى جانب مافى العيدين من إظهار للبهجة والسرور والشكر على نعمة الله على عباده بتوفيقهم إلى عبادته ، ففى يوم الفطر يكون المسلمون خارجين من عبادة الصيام شهرا كاملا هو شهر رمضان وفى عيد الأضحى يكون حجاج بيت الله الحرام فى مناسكهم بعد يوم عرفة حيث يرمون جمرة العقبة فى يوم عيدالأضحى ، وينحرون ويحلقون ويكبرون ربهم سبحانه وتعالى .

وغير الحجاج فى أوطانهم يستحب لهم صيام يوم عرفة والفطر يوم العيد ، حيث ينحرون الأضحية ويكبرون الله على ماهداهم وينعمون بضيافة ربهم سبحانه فى هذا اليوم المبارك العظيم .

●●●

وعن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه وأوسُ بن الحدثان أيام التشريق فناديا أنَّه لايدخل الجنة إلا مؤمن وأيامُ منى أيامُ أكل وشرب . رواه أحمد ومسلم .

وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن صوم خمسة أيام فى السنة يوم الفطر ويوم النحر وثلاثة أيام التشريق رواه الدارقطنى .

وعن عائشة وابن عمر قالا : « لم يُرخّصْ فى أيام التشريق أنْ يُصْمَن إلا لمن يجد الهدى » رواه البخارى ، وله عنهما أنهما قالا : « الصيام لمن تمتّع بالعُمرة إلى الحج إلى يوم عرفة ، فإن لم يجد هَدْيا ولم يصم صام أيام منى » .

وهكذا يتضح تحريم صوم أيام التشريق الثلاثة وهى أيام الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من شهر ذى الحجة .

وقد روى ابن المنذر وغيره عن الزبير بن العوام وأبى طلحة

من الصحابة : الجواز مطلقا . وعن على رضى الله عنه وعبدالله بن عمرو بن العاص : المنع مطلقا وهو المشهور عن الشافعى وعن ابن عمر وعائشة وعبيد بن عمير فى آخرين منعه إلا للمتمتع الذى لايجد الهدى وهو قول مالك والشافعى فى القديم .

وعن الأوزاعى وغيره أيضا : يصومها المحصر والقارن انتهى .

واستدل القائلون بالمنع مطلقا بالأحاديث التى لم تقيد الجواز للمتمتع .

واستدل القائلون بالجواز للمتمتع بحديث عائشة وابن عمر المذكور وأخرج الدارقطنى والطحاوى بلفظ : « رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم للمتمتع إذا لم يجد الهدى أن يصوم أيام التشريق وسميت تلك الأيام بأيام التشريق ، لأن لحوم الأضاحى تشرّق فيها أى تنشر فى الشمس ، وقيل : لأن الهدى لاينحر حتى تشرق الشمس ، وقيل لأن صلاة العيد تقع عند شروق الشمس .

وقيل : التشريق : التكبير دُبُر كل صلاة انتهى . وقد قال الله تعالى ـ مشيرا إلى تلك الأيام الثلاثة ـ : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب »

رمضان .. والصيام
فى ضوء السيرة النبوية :

- □ مع غزوة بدر .. لحظة بلحظة !
- □ أبو جهل .. والعناد إلى آخر رمق !!
- □ الجوع والعرى .. عندما يطول أمدهما !!
- □ شقة العداوة تتسع .. بين المسلمين واليهود .
- □ وجاء .. يوم الفتح الاعظم ..
- □ النبى يخرج مطاردا .. ويعود منتصرا !!
- □ وهكذا .. دخل أهل مكة فى الاسلام .

يكتب هذا الفصل :

الشيخ محمد الغزالى

مع غزوة بدر لحظة بلحظة !!

لقد حفل شهر رمضان المعظم بذكريات كريمة لها أكبر الأثر فى حياة المسلمين من أهمها : يوم الفرقان : يوم غزوة بدر الكبرى ويوم الفتح العظيم .

وقد بدأ يوم بدر عندما ترامت الأنباء إلى « يثرب » أن قافلة ضخمة لقريش تهبط من مشارف الشام عائدة إلى مكة . . تحمل لأهلها الثروة الطائلة . ألف بعير موقرة بالأموال ، يقودها « أبو سفيان بن حرب » مع رجال لايزيدون على الثلاثين أو الأربعين !

إن الضربة التى تنزل بأهل مكة ـ لو فقدوا هذه الثروة ـ موجعة حقاً ، وفيها عوض كامل لما لحق بالمسلمين من خسائر فى أثناء هجرتهم الأخيرة ، لذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام : هذه عير قريش ، فيها أموالهم ، فأخرجوا إليها ، لعلَّ الله ينفلكموها . . .

لم يعزم الرسول على أحد بالخروج ولم يستحث متخلفا ، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة ، ثم سار بمن أمكنه الخروج .

وكان الذين صحبوا الرسول صلى الله عيه وسلم هذه المرة يحسبون أن مضيهمّ فى هذا الوجه لن يعدُوَ ما ألفوا فى السرايا الماضية ، ولم يَدْرُ بخَلَدِ واحد منهم أنه مقبل على يوم من أخطر أيام الإسلام ! ولو علموا لاتخذوا أهبتهم كاملة ، ولما سُمح لمسلم أن يبقى فى المدينة لحظة ! لذلك فترتِ الهمم عندما وردت أخبار أخرى بأن القافلة المطلوبة غيرت طريقها .

واستطاع قائدها « أبو سفيان » أن ينجو من الخطر المحدق به ، بعد أن أرسل إلى أهل مكة يستنفرهم لحماية أموالهم ،

ويستثير حميتهم للخروج فى تعبئة تردُ كل هجوم . . .

وغالب النبى صلى الله عليه وسلم هذا الفتور العارض ، وحذَر صحابته من عقبى العود السريع إلى المدينة أن فاتهم مال مكة وخرج إليهم رجالها ! وأصر على ضرورة تعقب المشركين كيف كانوا .. وذلك قوله تعالى :

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾

(سورة الانفال)

والذين كرهوا لقاء قريش ، ماكانوا ليهاهبوا الموت ، ولكنهم لم يعرفوا الحكمة فى خوض معركة مباغتة دون إتقان ماينبغى لها من عدة وعدد ، بيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزن الظروف الملابسة للأمر كله ، فوجد الإقدام خيراً من الإحجام ، ومن ثمَّ قرر أن يمضى ، فإن الحكمة من توجيه هذه البعوث المسلحة تضيع سُدًى لو عاد على هذا النحو .

وقد اختفت ـ على عجَل ـ مشاعر التردد ، وانطلق الجميع خفافا إلى غايتهم . والمسير بإزاء طريق القوافل إلى « بدر » ليس سفراً قاصداً أو نزهة لطيفة . فالمسافة بين « المدينة » و« بدر » تربو على ١٦٠ كيلو متراً ، ولم يكن مع الرسول وصحبه غير سبعين بعيراً يتعقبونها .

روى أحمد عن عبدالله بن مسعود ، قال : كنا يوم بدر ، كل ثلاثة على بعير ـ أى يتعاقبون ـ وكان أبو لبابة وعلىّ بن أبى طالب زميلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فكانت عقبةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا له : نحن نمشى عنك ـ ليظل راكبا ـ فقالَ : « ما أنتما بأقوى منى ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما » . . . !!

وبث المسلمون عيونهم يتعرفون أخبار قريش : أين القافلة ؟ وأين الرجال الذين قدموا لحمايتها ؟

● ● ●

حين أحس أبو سفيان الخطر على قافلته ، بعث « ضمضم بن عمرو الغفارى » إلى مكة يستصرخ أهلها حتى يسارعوا إلى استنقاذ أموالهم .

واستطاع « ضمضم » هذا إزعاج البلدِ قاطبة : فقد وقف على بعيره ، بعد أن جدع أنفه ، وحوّل رحله ، وشق قميصه ، يصيح : يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان ، عرض لها محمد وأصحابه ، لا يرى أن تدركوها ، الغوث الغوث !

فتجهز الناس جميعا ، فهم إما خارج وإما باعث مكانه رجلا ، وانطلق سواد مكة وهو يغلى ، يمتطى الصعب والذلول . فكانوا تسعمائة وخمسين مقاتلا ، معهم مائتا فرس يقودونها ، ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين . . .

وولّوْا وجوههم إلى الشمال ، ليدركوا القافلة المارة تجاه يثرب هابطة إليهم . لكن أبا سفيان لم يستنم فى انتظار النجدة المقبلة ، بل بذل أقصى مالديه من حذر ودهاء ، لمخاتلة المسلمين والإفلات من قبضتهم ، وقد كاد يسقط بالعير جمعاء فى أيديهم وهم يشدون فى مسيرهم نحو بدر ، غير أن الحظ أسعفه !

روِى أنه لقى مجدىّ بن عمرو ، فسأله : هل أحسست أحداً ؟ فقال : مارأيت أحداً أنكره . إلا أنى رأيت راكبين أناخا إلى هذا التلّ . ثم استقيا فى شنّ لهما . ثم انطلقا . فأتى أبو سفيان مُناخهما ، وتناول بعرات من فضلات الراحلتين ثم فتّها فإذا فيها النوى . فقال : هذه والله علائف يثرب ! وأدرك

أن الرجلين من أصحاب محمد . وأن جيشه هنا قريب !

فرجع إلى العير يضرب وجهها عن الطريق ، شارداً نحو الساحل ، تاركا بدرا إلى يساره .. فنجا .

ورأى أبو سفيان أنه أحرز القافلة فأرسل إلى قريش يقول : إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم . وقد نجاها الله . فارجعوا .

فقال أبو جهل : والله لانرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم فيه ثلاثا ، ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً ..

وهذا الذى عالن به أبو جهل ، هو ماكان يحاذره الرسول عليه الصلاة والسلام فإن تدعيم مكانة قريش ، وامتداد سطوتها فى هذه البقاع - بعد أن فعلت بالمسلمين مافعلت - يعتبر كارثة للإسلام ، ووقفا لنفوذه ، وهل كانت السرايا تخرج من المدينة إلا لإعلاء كلمة الله وتوهين كلمة الشرك ، وإظهار عبدة الأصنام بمظهر الذى لايملك نفعا ولاضرا ؟

لذلك لم يلتفت الرسول لفرار القافلة ، التفاته لضرورة التجوال المسلح فى هذه الأنحاء ، إبرازاً لهذه المعانى القوية ، وتمكينا لصداها فى القلوب .

ومضت قريش فى مسيرها ، مستجيبة لرأى أبى جهل حتى نزلت بالعدوة القصوى من وادى بدر ، وكان المسلمون قد انتهوا من رحيلهم المضنى إلى العدوة الدنيا .

وهكذا اقترب كلا الفريقين من الآخر ، وهو لايدرى ماوراء هذا اللقاء الرهيب .

وهبط الليل فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم عليًّا والزبير وسعدا ، يتحسسون الأحوال ويلتمسون الأخبار ، فأصابوا غلامين لقريش كانا يمدانهم بالماء ، فأتَوْا بهما ، وسألوهما -

ورسول الله قائم يصلى ـ فقالا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء .

فكره القوم هذا الخبر ، ورجَوْا أن يكونا لأبى سفيان ـ لاتزال فى نفوسهم . بقايا أمل فى الاستيلاء على القافلة ! ـ فضربوهما ضربا موجعا حتى اضطرّ الغلامان أن يقولا : نحن لأبى سفيان ! فتركوهما ، وركع رسول الله وسجد سجدتيه وسلم ، وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما . . !

صدقا والله إنهما لقريش ، ثم قال للغلامين : أخبرانى عن قريش ! قالا : هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما : كم القوم ؟

قالا : كثير ! قال ماعدتهم ؟ قالا : لاندرى ! قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوما تسعا ، ويوما عشراً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . القوم ما بين التسعمائة إلى الألف ثم قال لهما : فمن فيهم من اشراف قريش ؟

قالا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو البخترى بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدىّ ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وعمرو بن هشام ، وأمية بن خلف . . . الخ

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها . .

وانكشف وجه الجد فى الأمر ، إن اللقاء المرتقب سوف يكون مُرَّ المذاق .

لقد أقبلت قريش تخب فى خيلائها ، تريد أن تعمل العمل الذى يرويه القصيد ، وتذرع المطايا به البطاح ، وتحسم به صراع خمسة عشر عاماً مع الإسلام ، لتنفرد ـ بعدها ـ الوثنية بالحكم النافذ . . .

ونظر الرسول حوله ، فوجد أولئك المؤمنين ، بين مهاجر باع فى سبيل الله نفسه وماله . وأنصارى ربط مصيره وحاضره بهذا الدين الذى افتداه وآوى أصحابه .

فأحب أن يشَعر القوم بحقيقة الموقف ، حتى يبصروا ـ على ضوئه ـ مايفعلون .

إن المرء قد تفجؤه أحداث عابرة وهو ماض فى طريقه ـ يحتاج فى مواجهتها ، لأن يستجمع مواهبه ، وأن يستحضر تجاربه ، وأن يقف أمامها حادَّ الانتباه ، مرهف الأعصاب ، وهذه الامتحانات المباغتة أدق فى الحكم على الناس ، وأدل على قيمهم ، من الامتحانات التى يعرفون ميعادها ، ويتقدمون إليها ، واثقين مستعدين .

● ● ●

المسلمون الذين خرجوا لأمر يسير ، ما لبثوا أن ألفَوْا أنفسهم أمام امتحان شاق ، تيقظت له مشاعرهم ، فشرعوا يقلِّبون ـ على عجل ـ تكاليفه ونتائجه . وثار منطق اليقين القديم فأهاج القوم إلى الخطة الفذة التى لا محيص عنها لمؤمن .

استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس . فقام أبوبكر الصديق ، فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب ، فقال وأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو ، فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لانقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسي : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فو الذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

فقال له الرسول صلى الله عليه وَسلم خيراً ، ودعا له .

ثم قال : أشيروا على أيها الناس ـ وإنما يريد الانصار ، وذلك أنهم كانوا عدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يارسول الله أنا برءاء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا ، فأنت فى ذمتنا . نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا .

فكان رسول صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة .

فلما قال ذلك قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل . فقال : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض يارسول الله لما أردت ، فنحن معك . فو الذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا البحر فخضته ، لخضناه معك ، ماتخلف منا رجل واحد ، ومانكره ان تلقى بنا عدونا غدا . إنا لَصُبُرٌ فى الحرب ، صدُقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ماتقر به عينك ، فسر على بركة الله .

وفى رواية : لعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذى أحدث الله إليك فامض ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ماشئت ، وأعطنا ما شئت ، وماأخذت منا ، كان أحب إلينا مما تركت .

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول « سعد » ونشّطه ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين . والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم . .

تأهب المسلمون لخوض المعركة . . وعسكروا فى أدنى ماء من بدر .

فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولانتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ! قال : يارسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، امض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فنعسكر فيه ، ثم نغوِّر ماوراءه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولايشربون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى . . ثم أمر بإنفاذه ، فلم يجىء نصف الليل حتى تحوَّلوا كما رأى الحباب ، وامتلكوا مواقع الماء .

وقضى المسلمون ليلا هادىء الأنفاس منير الآفاق ، غمرت الثقة قلوبهم وأخذوا من الراحة قسطهم ، وتساقط عليهم مطر خفيف رطب حولهم الجو وجعل نسائم الصباح تهب عليهم فتنعش صدورهم وتجدد أملهم ، وكان الرمل تحت أقدامهم دهسا فتلبّد وتماسك ، وجعل حركتهم عليه ميسرة « إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً منه ، ويُنزِّلُ عليكم من السماءِ ماء ليُطَهِّرَكم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربطَ على قلوبكم ويُثَبِّتَ به الأقدامَ » .

وكان رسول الله علي وسلم يتفقد الرجال ، وينظم الصفوف ، ويسدى النصائح ، ويذكر بالله والدار الآخرة . ثم يعود إلى عريش هيىء له ، فيستغرق فى الدعاء الخاشع ، ويستغيث بأمداد الرحمن .

ووقف أبوبكر إلى جوار الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يكثر الابتهال والتضرع ، ويقول فيما يدعو به : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد بعدها فى الأرض » . وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول : « اللهم أنجزلى ماوعدتنى ، اللهم نصرك » ويرفع يديه الى السماء حتى سقط رداؤه عن منكبيه

وجعل أبو بكر يلتزمه من ورائه ويسوى عليه رداءه ويقول - مشفقاً عليه من كثرة الابتهال - : يارسول الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ماوعدك .

أبوجهل .. والعناد إلى آخر رمق

وتزاحف الجمعان ، وبدأ الهجوم من قبَل المشركين ، إذ هجم الأسود بن عبدالأسد على الحوض الذىِ بناه المسلمون قائلا : أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه ، أو لأموتنّ دونه !

فتصدى له حمزة بن عبدالمطلب ، فضربه ضربة أطارت نصف ساقه ، ومع ذلك حبا إلى الحوض يبغى اقتحامه ، وتبعه حمزة يقاتله حتى قتله فيه !

فبرز من المشركين عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة . فخرج للقائهم فتية من الأنصار ،

فنادوا : يامحمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، وقيل : إنّ الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه هو الذى استرجع أولئك الأنصار رغبة منه ان تكون عشيرته أول من يواجه العدو فى مثل هذا الموقف . فقال : قم ياعبيدة بن الحارث ، قم ياحمزة ، قم ياعلىّ فبارز عبيدة عتبة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز علىٌّ الوليد . فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وكذلك فعل علىٌّ مع خصمه ، وأما عبيدة وعتبة ، فقد جرح كلاهما الآخر . فكرَّ حمزة وعلىٌّ بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه ، واحتملا صاحبهما ، فجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفرشه الرسول قدمه ، فوضع خده على قدمه الشريفة وقال : يارسول الله لو رآنى أبوطالب لعلم أنى أحق بقوله :

ونسلمه حتى نُصَرّعَ دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل . . ثم أسلم الروح . .

واستشاط الكفار غضبا للبداية السيئة التى صادفتهم ، فأمطروا المسلمين وابلا من سهامهم ، ثم حمى الوطيس وتهاوت السيوف ، وتصايح المسلمون : أحد . . أحد وأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكسروا هجمات المشركين . وهم مرابطون فى مواقعهم . . وقال : إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل ، ولاتحملوا عليهم حتى تؤذنوا .

فلما اتسع نطاق المعركة واقتربت من قِمتها كان المسلمون قد استنفدوا جهد أعدائهم وألحقوا بهم خسائر جسيمة ، والنبىّ فى عريشه يدعو الله ويرقب بطولة رجاله وجلدهم .

قال ابن إسحاق . « خفق النبىّ عليه الصلاة والسلام خفقة فى العريش ثم انتبه فقال : أبشر ياأبابكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع . . !!

لقد انعقد الغبار فوق رءوس المقاتلين ، وهم بين كرٍّ وفرٍّ . جند الحق يستبسلون لنصرة الرحمن . وجند الباطل قد ملكهم الغرور فأغراهم أن يغالبوا القدر .

فلاعجب إذا نزلت ملائكة الخير تنفث فى قلوب المسلمين روح اليقين ، وتحضهم على الثبات والإقدام .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانه الى الناس فحرضهم قائلا . « والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » .

إن التأميل فى الآخرة هو بضاعة الأنبياء . . وهل لأصحاب العقائد وفداة الحق من راحة إلا هناك ؟ . . وعمل هذا التحريض عمله فى القلوب المؤمنة .

روى أحمد أن المشركين لما دنَوْا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه . قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض . فقال عمير بن الحمام الأنصارى :

يارسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟! قال : نعم . قال : بخٍ بخٍ .

قال رسول الله : وما يحملك على قول بخٍ بخٍ ؟ قال : لا والله يارسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها !

قال : فإنك من أهلها .

فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن . ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه ، إنها حياة طويلة . فرمى ماكان معه من التمر ثم قاتلهم وهو يقول :

ركْضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

فمازال حتى قتل . . !

ووهت صفوف المشركين تحت مطارق هذا الايمان الزاهد فى متاع الحياة الدنيا . . ووراءهم محمد عليه الصلاة والسلام ، وقد نزل بنفسه إلى الميدان يقاتل أشد القتال ، ومعه أصحابه يشتدون نحو عدوهم لا يبالون شيئا ، فانكسرت قريش وأخذها الفزع .

وصاح النبى عليه الصلاة والسلام ـ وهو يرى كبرياء الكفر تمرَّغ فى التراب ـ « شاهت الوجوه . . » .

فانهزمت قريش . .

وذلك قول الله فى كتابه :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ

شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

(سورة الانفال)

وحاول « أبو جهل » أن يقف سيل الهزيمة النازل بقومه ، فأقبل يصرخ بهم ، وغشاوة الغرور لاتزال ضاربة علي عينيه ، « واللات والعزى لانرجع حتى نفرقهم فى الجبال .. خذوهم أخذا » .

وماذا تفعل صيحات الطيش بإزاء الحقائق المكتسحة ؟ لكن أبا جهل - والحق يقال - كان تمثالا للعناد إلى آخر رمق . والطمس المنسوج على بصيرته جزء من كيانه لاينفك عنه أبداً ، لذلك أقبل يقاتل فى شراسة وغضب وهو يقول : ماتنقم الحرب الشموس منى ؟ بازل عامين حديث سنى !

لمثل هذا ولدتنى أمى

وأحاطت به فلول المشركين يقولون : أبا الحكم لايخلص إليه ، فكان بينهم وسط غابة ملتفة . بيد أن هذه الغابة لم تلبث أن تهاوت جذعاً جذعاً ، أمام حماس المؤمنين الذين اشتد بأسهم ، وأغرتهم بشائر الفوز . وساد هتافهم الموقعة وهم يقولون ؛ أحد أحد .

قال عبدالرحمن بن عوف : إنى لفى الصف يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يمينى وعن يسارى فَتَيَان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما ، إذ قال لى أحدهما سراً من صاحبه : ياعم ، أرنى أبا جهل ، فقلت : ياابن أخى ماتصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه !! وقال لى الآخر سراً من صاحبه مثله . قال : فما سرّنى أننى بين رجلين مكانهما .

فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين ، فضرباه حتى قتلاه ، وهما ابنا عفراء ، ويظهر أنهما تركاه بين الحياة والموت ، وقد استشهد البطلان فى هذه الواقعة ، ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصرعهما يدعو لهما ويذكر صنيعهما .

أما أبو جهل فقد سقط مكانه يلفظ أنفاسه ، وتفرق المشركون بعده بددا ، وتركوا سيقانهم للريح ، تبعثرهم فى فجاج الصحراء ، كما تبعثر كثيبا من الرمل المنهار .

ومر عبدالله بن مسعود بالقتلى فوجد أبا جهل فيهم ، لايزال به رمق ، فجثم على صدره يبغى الاجهاز عليه ، وتحرك « أبوجهل » يسأل لمن الدائرة ؟

قال عبدالله :

لله ورسوله ثم استتلى عبدالله : هل اخزاك الله ياعدو الله ؟ قال : وبماذا اخزانى ؟ هل أعمد من رجل قتله قومه ؟ وتفرس فى عبدالله ثم قال له : ألست رويعينا بمكة ؟

فجعل عبدالله يهوى عليه بسيفه حتى خمد .

ولقي مثل هذا المصير الفاجع سبعون صنديدا من رءوس الكفر بمكه ، دارت عليهم كؤوس الردى فتجرعوها صاغرين وسقط فى الاسر سبعون كذلك .

وفر بقية التسعمائة والخمسين يروون لمن خلفهم ان الظلم مرتعه وخيم ، وان البطر يجر فى اعقابه الخزى والعار .

● ● ●

وفتح المسلمون عيونهم على بشاشة الفوز تضحك لهم خلال الارض والسماء ، ان هذا الظفر المتاح رد عليهم الحياة والامل والكرامة وخلصهم من أغلال ثقال « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة . فاتقوا الله لعلكم تشكرون »

وكانت عدة من استشهد منهم اربعة عشر رجلا ، استأثرت

بهم رحمة الله ، فذهبوا الى غليين . ثبت عن أنس بن مالك ، ان حارثه بن سراقة ، قتل يوم بدر ، وكان فى النظارة ، اصابه سهم طائش فقتله ، فجاءت امه فقالت : يارسول الله ، اخبرنى عن حارثة ؟ فإن كان فى الجنة صبرت ، وإلا فليرين الله ما أصنع - تعنى من النياحة - وكانت لم تحرم بعد !! فقال لها الرسول : ويحك أهبلت ؟ إنها جنان ثمان ، وان ابنك أصاب الفردوس الأعلى . . . »

فإن كان هذا جزاء النظارة الذين اختطفتهم سهام طائشة ، فكيف بمن خاض الى المنايا الغمرات الصعاب ؟ . . .

فى هذه المعركة التقى الآباء والابناء ، والإخوة . خالفت بينهم المبادىء ، ففصلت بينهم السيوف . وفى عصرنا هذا قاتل الشيوعيون مواطنيهم ، ومزقوا أغلى الاواصر الانسانية فى سبيل ما يعتنقون . فلا عجب إذا رأيت الابن المؤمن يغاضب أباه الملحد ، ويخاصمه فى ذات الله . والقتال الذى دار بـ« بدر » سجل صورا من هذا النوع الحاد .

كان ابوبكر مع رسول الله ، وكان ابنه عبدالرحمن يقاتله مع أبى جهل .

وكان عتبة بن ربيعه أول من بارز المسلمين . وكان ولده أبو حذيفة من خيار أصحاب النبى . فلما سحبت جثة عتبة لترمى فى القليب ، نظر الرسول الى ابى حذيفة ، فإذا هو كئيب قد تغير لونه ! فقال له : ياحذيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شىء ؟ فقال : لا والله يارسول الله ، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه ولكنى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا ، فكنت ارجو ان يهديه ذلك الى الاسلام . فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له ، احزننى ذلك !

فدعا له رسول الله بخير . وقال له خيرا .

وأمر رسول الله بقتلى المشركين فطرحوا فى القليب . وروى انه قال عند مرآهم « بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس » فلما ووريت وأهيل التراب على رفاتهم . انصرف الناس وهم يشعرون ان أئمة الكفر قد استراح الدين والدنيا من شرورهم . الا ان النبى استعاد ماضيه الطويل فى جهاد أولئك القوم .

كم عالج مغاليقهم وحاول هدايتهم ؟ وكم ناشدهم الله وخوفهم عصيانه وتلا عليهم قرآنه ؟

وهم ـ على طول التذكير ـ يتبجحون وبالله وآياته ورسوله يستهزئون فخرج النبى فى جوف الليل حتى بلغ القليب المطوى على أهله . وسمعه الصحابة يقول : « يا أهل القليب ياعتبة بن ربيعه ، ياشبيه يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا ؟ فقال المسلمون : يارسول الله أتنادى قوما جيفوا ؟ قال : ما انتم بأسمع لما أقول منهم ! ولكنهم لا يستطيعون ان يجيبونى »

كانت وقعة بدر فى السابع عشر من رمضان لسنتين من الهجرة . وقد أقام رسول الله صلى عليه وسلم ببدر ثلاثا ، ثم قفل عائدا الى المدينة ، يسوق أمامه الأسرى والغنائم ! ورأى قبل دخولهم ان يعجل البشرى إلى المسلمين المقيمين فيها ، الذين لايدرون مما حدث شيئا .

فأرسل « عبدالله بن رواحة » و « زيد بن حارثة » بشيرين يؤذنان الناس بالنصر العظيم .

قال « اسامة بن زيد » فأتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ! وكان زوجها عثمان بن عفان قد احتبس عندها بمرضها بأمره وضرب رسول الله له بسهمه واجره فى بدر .

الجوع والعرى .. عندما يطول أحدهما

برغم ما سجله التاريخ من تجمل ومواساة بين الأنصار والمهاجرين ، فإن متاعب العيلة ومشكلات الفقر تفشت خلال المجتمع الجديد، ان سترها التعفف حينا، ابرزتها الحاجة حينا آخر، والأزمات التى تصاحب تكوين دولة من العدم وسط امم تكيد لها وتتربص بها الدوائر ، يجب ان تتوقع وان توطن النفوس على احتمالها ، وألا تكون حدة الشعور بها سببا فى ضعف السيرة وعجز الهمة . . .

وقد آخذ الله المسلمين ـ قبل معركة بدر وبعدها ـ بأمور بدرت منهم ، يجب لهم ان يتنزهوا عنها ، مهما بلغ من شدة الدوافع والمبررات لارتكابها .

فهم يوم خرجوا من يثرب لملاقاة مشركى مكة ، تعلقت امانيهم بإحراز العير وما تحمل من ذخائر ونفائس . .

حقا إنهم اخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وضحوا فى سبيل الله بأنفسهم وأولادهم . . فليمضوا فى طريق الفداء الى المرحلة الأخيرة ، ومهما عضهم الفقر بنابه ، فليكن التنكيل بالكافرين ارجح فى ميزانهم من الاستيلاء على الغنيمة .

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الانفال)

ومن هذا القبيل تسابقهم بعد النصر الى حيازة الغنائم ومحاولة كل فريق الاستئثار بها .

عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبى فشهدت معه بدرا فالتقى الناس ، فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يطاردون ويقتلون ، وأكبت طائفة على المغنم يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم الى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، وليس لأحد فيها نصيب .

وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم أحق بها منا ، نحن نحينا منها العدو وهزمناه .

وقال الذين احدقوا برسول الله : خفنا ان يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فأنزل الله « يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » فقسمها رسول الله بين المسلمين .

هذا التنازع المؤسف إثر البأساء الشاملة التى لحقت بالمهاجرين والانصار على السواء ، وقد نظر رسول الله الى مظاهر هذا البؤس على اصحابه وهم خارجون الى بدر ، فرثى لحالهم ، وتألم لما بهم ، وسأل الله ان يكشف كرباتهم .

فعن عبدالله بن عمرو قال : خرج رسول الله يوم « بدر » فى ثلثمائة وخمسة عشر رجلا من اصحابه ، فلما انتهى اليها قال : اللهم انهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم انهم عراة فاكسهم » ففتح الله له يوم بدر ، فانقلبوا حين انقلبوا ، وما منهم رجل الا وقد رجع بحمل او حملين واكتسوا وشبعوا »

ان الجوع والعرى عندما يطول أمدهما يتركان فى النفوس ندوبا سيئة ، ويدفعان الافكار فى مجرى ضيق كالح ، على ان

هذه الأزمات ان احرجت العامة واهاجتهم الى طلب الغذاء والكساء لأنفسهم وذراريهم بحرص ومجاهرة ، فإن المؤمنين الكبار ينبغى أن يتماسكوا ، وان يكتموا أحاسيس الفاقة الملحة فلا يتنازعوا على شيء . . !

وذلك الأدب هو ما أخذ الله به المسلمين ، وافتتح به السورة التى تحدثت عن القتال فى بدر . .

ذلك ان الخاصة من الرجال هم قدوة غيرهم ، فإذا ساءت أخلاقهم للضوائق العارضة واضطرب مسلكهم فسيكون سواد الشعب الى مزالق الفوضى أسرع . . . وقد رأينا « الألمان » فى الحرب العالمية الأولى و « الانجليز » فى الحرب العالمية الثانية شدد عليهم الحصار حتى هزلت الأجسام ، واصفرت الوجوه ، وما صابرت الجماهير هذه المجاعات إلا وراء قادتها المصابرين المتجملين .

● ● ●

ومما حاسب الله عليه المسلمين حسابا شديدا موقفهم بإزاء الأسرى ، فان الرغبة فى استبقائهم للانتفاع من ثرواتهم غلبت الآراء الأخرى بضرورة الاقتصاص من مآثمهم السابقة ، حتى يكونوا نكالا لما بين ايديهم وما خلفهم وموعظة للمتقين . . .

استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليا ، فقال أبوبكر : يارسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان ! وانى أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا . .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟

قال: قلت والله ماأرى مارأى أبوبكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه، وتمكن عليا من عقيل بن ابي طالب ، فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان اخيه ، فيضرب عنقه حتى يعلم الله انه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . . . فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبوبكر ، ولم يهو ما قلت ، واخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت الى النبى عليه الصلاة والسلام وابى بكر وهما يبكيان ! فقلت : يارسول الله اخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وان لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . للذى عرض على اصحابك من أخذهم الفداء !! قد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة ـ .

وانزل الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) ﴾

(سورة الانفال)

ان الوقوع فى الاسر لايعنى صدور عفو عام عن الجرائم التى اقترفها الاسرى أيام حريتهم ، وهؤلاء الطغمة من كبراء مكة ، لهم ماض شنيع فى ايذاء الله ورسوله ، وقد ابطرتهم منازلهم ، فساقوا عامة مكة الى حرب ، ما كان لها من داع ، فكيف يتركون بعد ان استمكنت الايدى من خناقهم ؟

اذلك لأن لهم ثروة يفتدون بها ؟ ما كان يليق ان ينظر

المؤمنون الى هذه الاعراض التافهة متناسين ما فرط من اولئك الكفار فى جنب الله .

إنهم مجرمو حرب - بالاصطلاح الحديث - لا اسرى حرب ، وقد ندد القرآن بخيانتهم لقومهم بعد كفرهم بنعمة الله عليهم فقال :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

وهناك نصوص توصى برعاية الاسرى واطعامهم وتشرع القوانين الرحيمة فى معاملتهم ، وهذه تنطبق على جماهير الأسرى من الأتباع والعامة .

أما الذين تاجروا بالحروب لاشباع مطامعهم الخاصة فيجب استئصال شأفتهم ، وذلك هو الاثخان فى الارض .

ان الحياة كما تتقدم بالرجال الأخيار ، فإنها تتأخر بالعناصر الخبيثة ، واذا كان من حق الشجرة لكى تنمو ان تقلم ، فمن حق الحياة لكى تصلح ، ان تنقى من السفهاء والعتاة والاثمين ، ولن يقوم عوض ابدا عن هذا الحق ، ولو كان القناطير المقنطرة من الذهب ، وقد اسمع الله نبيه وصحابته هذا الدرس ، حتى اذا وعوه وتدبروه عفا عنهم ثم اباح لهم - من رحمته بهم - الانتفاع بما اخذوا من فداء فقال :

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

(سورة الأنفال)

شُدِة العرب قاطبة للنصر الحاسم الذى ناله المسلمون فى بدر ، بل ان أهل مكة استنكروا الخبر اول ما جاءهم ، وحسبوه هذيان مجنون ، فلما استبان صدقه ، صعق نفر منهم فهلك لتوه ، وماج بعضهم فى بعض من هول المصاب لايدرى ما يفعل . . .

وكما استبعد أهل مكة الهزيمة على انفسهم حتى جوبهوا بعارها ، استبعد مشركو المدينة ويهودها ما قرع أذانهم من بشريات الفوز ، وذهب بعضهم الى حد اتهام المسلمين بأن ما يذاع عن نصرهم محض اختلاق وظلوا يكابرون حتى رأوا الاسرى مقرنين فى الاصفاد ، فسقط فى أيديهم .

وقد اختلفت مسالك الأحزاب بإزاء المسلمين بعد هذا الغلب الذى مكن للاسلام وأهله ، وجعل سلطانهم مهيبا فى المدينة وما حولها ، ومد نفوذهم على طرق القوافل فى شمال الجزيرة ، فيصبح لا يمر بها احد الا بإذنهم .

فأما أهل مكة فقد انطووا على أنفسهم ، يداوون جراحهم ، ويستعيدون قواهم ويستعدون لنيل ثأرهم ، ويعلنون ان يوم الأنتقام قريب ، ولم تزدهم الهزيمة إلا كرها للإسلام . ونقمة على محمد وصحبه ، واضطهادا لمن يدخل فى دينه ، فكان من ينشرح صدره للاسلام يختفى به او يعيش ذليلا مستضعفا .

ذلك فى مكة ، حيث كانت الدولة للكفر .

اما فى المدينة حيث المسلمون كثرة مكينة ظاهرة ، فقد اتخذت العداوة للاسلام طريق الدس والنفاق والمخاتلة ،

فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهرا ، وقلوبهم تغلي حقدا وكفرا ، وعلى رأس هؤلاء عبدالله بن أبي .

روى أسامة بن زيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ـ كما أمرهم الله تعالى ـ ويصبرون على الاذى :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتأول في العفو ما امره الله به ـ حتى اذن فيهم ـ .

فلما غزا بدرا وقتل فيها من قتل من صناديد قريش ، وقفل رسول الله عليه الصلاة والسلام واصحابه منصورين غانمين معهم اساراهم ، قال « عبدالله بن ابي » ومن معه من المشركين عبدة الاوثان : هذا امر قد توجه (اى استمر فلا مطمع في ازالته) فبايعوا رسول الله صلى عليه وسلم على الاسلام فأسلموا . . على ان هذا الخداع لاذ به فريق من الكفار في الوقت الذى عالن فريق اخر من اليهود بسخطهم على محمد ، وألمهم للهزيمة التي اصابت قريشا في « بدر » بل ان كعب بن الاشرف من رجالات يهود ـ ارسل القصائد في رثاء قتلاهم والمطالبة بثأرهم .

وقد اتسعت شقة العداوة بين المسلمين واليهود اثر هذا الموقف النابي . ثم حاول اليهود ان يحقروا من النصر الذى حظى به الاسلام بما مهد للاحداث العنيفة التي وقعت بعد ، ودفع اليهود ثمنها من دمهم افرادا وجماعات . . . اما البدو

الضاربون حول المدينة ، وعلى طرق القوافل ، فهم قوم هَمَل لا يهمهم شيء من قضايا الكفر والايمان ، انما يهمهم اكتساب القوت من اى وجه ، والحصول عليه ولو عن طريق السلب والنهب . وتاريخهم الحديث مع قوافل الحجاج شاهد صدق على انهم لايرعون حرمة ولايخشون الا القوة . ولولا بطش السعوديين بهم ما أمن طريق الحج قط ! وقد سبق لهم استياق نعم المدينة ، وماورثوه من جاهلية طامسة ، جعل قلوبهم مع مشركى الجزيرة ، وقد ذعروا لانتصار المسلمين فى بدر ، واخذت جموعهم تحتشد ، تبغى انتهاز فرصة للاغارة على المدينة ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم نهض الى جموعهم فشتتها ، ولم يلق فى ارهابهم متاعب ذات بال .

وجاء يوم الفتح الأعظم

شغل المسلمون بعد عهد الحديبية بنشر الدعوة وعرض تعاليم الإسلام على كل ذى عقل . وكان وفاؤهم لقريش أمراً مقرراً فيما أحبوا وفيما كرهوا . ورأى الناس من ذلك الآيات البينات . . .

لكن قريشا ظلت على جمودها القديم فى ادارة سياستها ، غير واعية للأحداث الخطيرة التى غيّرت مجرى الأحوال فى الجزيرة العربية ، وتوشك أن تغيره فى العالم كله .

وقد جرَّها فقدان هذا الوعْىِ إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لَغْواً .

وذلك أنها ـ مع حلفائها من بنى بكر ـ هاجموا خزاعة ـ وهى مع المسلمين فى حلف واحد ـ وقاتلوهم فأصابوا منهم رجالا . وانحازت خزاعة إلى الحرم ، إذ لم تكن متأهبة لحرب ، فتبعهم بنو بكر يقتلونهم ، وقريش تُمدُّهم بالسلاح وتعينهم على البغى .

وأحس نفر من بنى بكر أنهم دخلوا الحرم ـ حيث لا يجوز قتال ـ فقالوا لرئيسهم نوفل بن معاوية : إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك . فقال نوفل : لا إله اليوم يا بنى بكر . . . أصيبوا ثأركم . . . !!

وفزعت خزاعة لما حل بها ، فبعثت إلى رسول الله « عمرو بن سالم » يقص عليه نبأها . فلما قدم المدينة ، وقف على النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس يقول :

يارب إنى ناشد محمداً حلفَ أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنت ولدا وكنا والدا ثُمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا أبيض مثل البدر يسمو صعدا
إن سيم خسفا وجهه تربدا فى فيلق كالبحر يجرى مُزبدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لى فى كداء رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا هم بيتونا بالوتير هُجَّدا
وقتلونا رُكّعاً وسجداً

فقال له رسول الله : نصرت يا عمرو بن سالم .

● ● ●

وأحست قريش ـ بعد فوات الأوان ـ خطأها ، فخرج أبو سفيان إلى المدينة يصلح ما أفسده قومه ، ويحاول أن يعيد للعقد المهدر حرمته !

وبلغ المدينة فذهب الى ابنته أم حبيبة ، وأراد أن يجلس على الفراش ، فطوته دونه ، فقال : يابنية ما أدرى ، أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟.

فقالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت مشرك نجس ! قال : والله فقد أصابك بعدى شر ! ثم خرج حتى أتى رسول الله فكلمه ، فلم يرد عليه شيئا .

واستشفع أبو سفيان بأبى بكر ليحدث النبىّ فى هذا الشأن فرفض . فتركه الى عمر ، فقال عمر : أنا أشفع لكم عند رسول الله ؟ والله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به .

فتركهما الى علىّ فرد عليه : والله يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، ثم نصحه أن يعود من

حيث جاء . . . فقفل أبو سفيان إلى قومه يخبرهم بما لقى من صدود .

وأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم الناس أن يتجهزوا ، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة ، وأوصاهم بالجد والبدار . وقال : اللهم خُذِ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها !

واستمع المسلمون لأمر نبيهم ، فمضوا يعبئون قواهم للقاء المنتظر ، وهم مدركون أن الساعة الفاصلة مع أهل مكة قد دنت .

● ● ●

ووقع فى هذه الفترة الدقيقة حادث مستغرب ، فإن رجلا من أهل السابقة فى جهاد المشركين تطوَّع بإرسال كتاب الى قريش يخبرهم فيه أن محمداً سائر إليهم بجيشه . . . !!

وقد رأيت أن المسلمين حراص على اخفاء خطة الغزو ، أليس مما يقرب نجاحهم ويخفف خسائرهم ، ولعله يدفع قريش الى التسليم دون أن تسفك الدماء عبثا ؟؟ وما معنى الكتابة اليهم إلا التحريض على حرب الله ورسوله ، والاستكثار من أسباب المقاومة ؟

عن علىّ بن أبى طالب : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة « خاخ » فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها فانطلقنا تَعَادَى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فاذا نحن بالظعينة . فقلنا : أخرجى الكتاب . فقالت : ما معى ! فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب !! فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإذا فيه « من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله » فقال : يا حاطب ما هذا ؟ فقال : يا رسول الله لا تعجل علَّى . إنى كنت امرأ

ملصقا فى قريش ـ كنت حليفا لها ولم أكن من صميمها ـ وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات ـ يحمون بها أهليهم وأموالهم . فأحببت ، إذا فاتنى ذلك من النسب فيهم ، إن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى ، ولم أفعله ارتداداً عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام . . .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما انه قد صدقكم ! فقال عمر : يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ! فقال : إنه قد شهد بدراً . وما يدريك ؟ . . لعلّ الله قد اطلع على من شهد بدراً فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . . . ؟

ونزل قول الله تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ ﴾

(سورة الممتحنة)

إن حاطبا خرج عن جادة الصواب بهذا العمل وما كان له أن يوادَّ المشركين وهم الذين تبجحوا بالكفران وتظاهروا على العدوان وصنعوا بالمسلمين ما « حاطب » أعلم به من غيره .

لكن الانسان الكبير تعرض له فترات يصغر فيها ، والله أبرُّ بعباده من أن يؤاخذهم بسورات الضعيف التى تعرو نورهم فيخبو ، وسعيهم فيكبو .

وقد استكشف النبىُّ صلى الله عليه وسلم خبيئة حاطب ، فعرف إنه لم يكذبه فى اعتذاره ، إنهم مقبلون على معركة كبيرة قد ينهزمون فيها ، فتقوم العصبيات القديمة بحماية الأقارب الشاردين ؛ ويبقى حاطب لا حمى له ، فليتخذ تلك اليد عند قريش ، حيطةً للمستقبل .

ذاك ما فكر فيه حاطب ، وهو خطأ ، فإن المشركين لم يذكروا فى عداوة الإسلام رحماً ولا أهلا ، وما ينبغى - ولو دارت علينا الدوائر - أن نبقى لهم وداً ، وقد خاصمناهم فى ذات الله ، وأُخذ علينا العهدُ إن نبذل فى حربهم أنفسنا وأموالنا . . .

ولو جاز اتخاذ يدٍ عندهم فكيف يُتَوَسَّلُ لذلك بعمل يعد خيانة كبيرة فادحة ، الإضرار بالإسلام وأهله ؟

على أن حاطباً شفع له ماضيه الكريم ، فجبرت عثرته ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يُذكر الرجل بأفضل ما فيه ، وبهذا التقدير السمح علّمنا الإسلام ألا ننسى الحسنات والفضائل لمن يخطئون حيناً بعد أن أصابوا طويلا .

النبى يخرج مطاردا .. ويعود منتصرا !

سرى القلق فى ربوع مكة عقب أوبة أبى سفيان ، ورأى العباس بن عبدالمطلب أن يسلم هو وعياله وأن يهجروا مكة الى المدينة ، فقابلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الطريق مقبلا بجيشه على مكة ، وخرج كذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ، وعبدالله بن أبى أمية ، فلقيا النبى صلى الله عليه وسلم بالأبواء - وهما ابن عمه وابن عمته - وكانا من أشد الناس إيذاء له بمكة ، فأعرض عنهما لما ذكر من مساءتهما .

لكن على بن أبى طالب أشار على ابن عمه أبى سفيان بوسيلة يترضى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال له : ائته من قِبَلْ وجهه وقل له ما قاله إخوة يوسف (تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جواباً ، ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وأنشده أبو سفيان أبياتاً جاء فيها :

لعمرك إنى حين أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكا لمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أوانى ، حين أهدى فأهتدى
هدانى هاد ، غير نفسى ، ودلّنى على الله من طردّته كل مطرد

فضرب الرسول على صدره وهو يقول له : أنت طردتنى كل مطرد .

وسار الجيش يطوى الوهاد والنجاد مسرعا إلى مكة ، حتى بلغ « مر الظهران » قريباً منها فى العشاء ، فنزل الجيش ، ونصبت الخيام ، وأوقدت النيران فى معسكر يضم عشرة آلاف حتى أضاء منها الوادى ، وأهل مكة فى عماية من أمرهم لا يدرون عن القضاء النازل بهم شيئاً . . . وعَزَّ على العباس أن تُجتاح مكة فى أعقاب قتال تتفانى فيه ولا يغنيها فتيلا .

فخرج يبحث عن وسيلة تقنع قريشاً بمسالمة النبىِّ صلى الله عليه وسلم وتُدخلها فى أمانه .

وصادف ذلك أن ثلاثة من كبراء مكة خرجوا يتعرفون الأخبار ، ويتسمعون ما يقال ، فلما اقتربوا من الوادى راعهم ما به .

قال أبو سفيان زعيم مكة : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكراً ! !

فقال بديل بن ورقاء : هذه ـ والله ـ خزاعة حمشتها الحرب !

فرد أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . . .

وكان المسلمون على خطتهم المرسومة يبثون العيون حولهم حتى يأخذوا قريشاً على غرة فلا ترى من التسليم بُدًّا ، فعثرت خيالتهم على رجال قريش أولئك ومعهم حكيم بن حزام فأخذتهم ، وعادت بهم مسرعة الى رسول الله ولحق العباس وهو يعلن أنه فى جواره فلما دخلوا على النبى صلى الله عليه وسلم حادثهم عامة الليل ، فانشرحت صدورهم بالإسلام ، وإن كان أبو سفيان قد تأخر إسلامه حتى طلع الصبح . . .

ثم سألوه الأمان لقريش ، فقال رسول الله : من دخل دار

أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن .

وإنما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان هذه الميزة إرضاء لعاطفة الفخر فى نفسه ، وقد أرضاه بما لا يضر أحدا ولا يكلف جهدا ، ولا عليه أن يتحبب إلى نفس بمثل هذا الثمن الميسور ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستوثق من سير الأمور بعيدا عن الحرب والضرب ، فضم إلى ذلك المسلك مع أبي سفيان أن أوصى العباس باحتجازه فى مضيق الوادى حتى يستعرض القوى الزاحفة كلها فلا تبقى فى نفسه أثارة لمقاومة ، وهو سيد مكة المتبوع ، قال العباس : فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادى حيث أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : سليم ! فيقول : مالى ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة ، فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ! فيقول : مالى ولمزينة حتى نفدت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سألنى عنها ، فإذا أخبرته قال : مالى ولبنى فلان ؟

حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال : سبحان الله ! يا عباس من هؤلاء ؟

قلت : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار .

قال : ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة ! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما !.

قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ! قال : فنعم إذن .

ودخل أبو سفيان مكة مبهورا مذعورا ، وهو يحس أن من وراثه إعصارا إذا انطلق اجتاح ما أمامه ، فما يقف دونه شيء ، ورأى أهل مكة الجيش الفاتح يقبل من بعيد رويدا رويدا ، فاجتمعوا على سادتهم ينتظرون الأوامر بالقتال ، فإذا بصوت أبي سفيان ينطلق عاليا واضحا : يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن !

وشدهت امرأته هند بنت عتبة وهي تسمع من زوجها هذا الكلام ، فوثبت إليه وأخذت بشاربه تلويه وصاحت : اقتلوا الحميت الدسم الأحمش - أي هذا الزق المنتفخ - قبحت من طليعة قوم !!

ولم يكترث أبو سفيان لسباب امرأته فعاود تحذيره : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ! فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

قالوا : قاتلك الله ! وما تغني عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

وأصبحت « أم القرى » وقد قيد الرعب حركاتها ، واسترخت تجاه القدر المنساق إليها . فاختفى الرجال وراء الأبواب الموصدة ، أو اجتمعوا في المسجد الحرام يرقبون مصيرهم وهم واجمون .

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ، ورسول الله على ناقته ، تتوج هامته عمامة دسماء ، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله ، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجم حتى كاد عثنونه يمس واسطة الرحل ، إن الموكب الفخم المهيب الذي ينساب به حثيثا إلى جوف الحرم ، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن ، إن هذا

الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول ، كيف خرج مطاردا ؟ وكيف يعود اليوم منصورا مؤيدا . . . ؟ وأى كرامة عظمى حفه الله بها فى هذا الصباح الميمون ؟ وكلما استشعر هذه النعماء ازداد لله على راحلته خشوعا وانحناء ، ويبدو أن هناك عواطف أخرى كانت تجيش فى بعض الصدور .

فإن « سعد بن عبادة » زعيم الأوس ، ذكر ما فعل أهل مكة ، وما فرطوا فى جنب الله ، ثم شعر بزمام القوة فى يده فصاح : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا .

وبلغت هذه الكلمة مسامع الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة . اليوم يوم أعز الله فيه قريشا ، وأمر أن ينزع اللواء من سعد ويدفع إلى ابنه مخافة أن تكون لسعد صولة فى الناس .

● ● ●

وسار رسول الله فدخل مكة من أعلاها . وأمر قادة جيشه الا يقاتلوا الا من قاتلهم فدخلت سائر الفرق من أنحاء مكة الأخرى .

ودخل « خالد بن الوليد » من أسفل مكة . وكان هناك نفر من قريش ، غاظهم هذا التسليم ، فتجمعوا عند « الخندمة » يقودهم « عكرمة » بن أبى جهل و« سهيل » بن عمرو ، و« صفوان » ابن أمية ، إلا أن الحقيقة الكبيرة صدمت غرورهم فبددته ، فإن خالدا حصدهم حصدا حتى لاذ القوم بالفرار .

ومن طريف ما وقع أن حماس بن خالد من قبيلة بنى بكر ، كان قد أعد سلاحا لمقاتلة المسلمين . وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ويتعهده تسأله : لماذا تعد ما أرى ؟ فيقول : لمحمد وأصحابه .

وقالت امرأته له يوما : والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وصحبه

شىء !

فقال : إنى والله لأرجو أن أخدمك بعضهم . . . ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فمالى علة
هذا سلاح كامل وألة
وذو غرارين سريع السلة

فلما جاء يوم الفتح ناوش حماس هذا شيئا من قتال مع رجال عكرمة .

ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد .

فخرج منهزما حتى بلغ بيته فقال لامرأته : أغلقى على الباب . . !

فقالت المرأة لفارسها المعلم : فأين ما كنت تقول ؟ . فقال ـ يعتذر ـ لها :

إنك لو شهدت يوم الخندمة
إذا فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة
واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة
ضربا فلا يسمع إلا غمغمة
لهم نهيت خلفنا وهمهمة
لم تنطقى باللوم أدنى كلمة !!

وسكنت مكة . واستسلم سادتها واتباعها . وعلت كلمة الله فى جنباتها . ثم نهض رسول الله إلى البيت العتيق فطوف به وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله . ويضربها بقوسه ظهرا لبطن ، فتقع على الأرض مهشمة متناثرة .

كانت هذه الحجارة ـ قبل ساعة ـ آلهة مقدسة . وهى ـ الآن ـ جص وتراب وأنقاض ، يهدمها نبى التوحيد وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان

زهوقا . . . »

ثم أمر بالكعبة ففتحت ، فرأى الصور تملؤها ، وفيها صورتان لإبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام ! فقال - ساخطا على المشركين - : قاتلهم الله . والله ما استقسما بها قط . ومحا ذلك كله . حتى إذا طهر المسجد من الأوثان أقبل على قريش وهم صفوف صفوف ، يرقبون قضاءه فيهم . فأمسك بعضادتى الباب - باب الكعبة - وهم تحته ، فقال : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ! قال : فإنى أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : لاتثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وعندما كان رسول الله بالمسجد يجهز على الوثنية فى عاصمتها الكبرى ، اقترب منه « فضالة بن عمير » يريد أن يجد له فرصة ليقتله .

فنظر إليه النبى نظرة عرف بها طويته إلا أنه فى غمرة النصر الذى أكرمه الله به ، لم يجد فى نفسه على الرجل ، بل استدعاه ثم سأله : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

قال : لا شيء ! كنت أذكر الله !! فضحك النبى ثم قال : استغفر الله .

وتلطف معه الرسول ، فوضع يده على صدره ، فانصرف الرجل وهو يقول : ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إلى منه .

وكانت لفضالة فى جاهليته هنات ، فمر - وهو راجع إلى أهله - بامرأة لها معه شأن ، فلما رأته قالت : هلم إلى الحديث ، فانبعث يقول :

قالت :

هلم إلى الحـــــديث ، فقلت : لا
يـــأبى عليـــك الله والإســـلام
لـــو مـــارأيت محمـــدا وقبيله
بـــالفتـــح يـــوم تكسر الأصنـــام
لـــرأيت دين الله أضحى بينـــا
والشرك يغشى وجهــــه الإظـــلام

وهكذا .. دخل أهل مكة فى الاسلام

وصعد بلال فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة ، وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنهم فى حلم ، إن هذه الكلمات تقصف فى الجو فتقذف بالرعب فى أفئدة الشياطين ، فلا يملكون أمام دويها إلا أن يولوا هاربين ، أو يعودوا مؤمنين . الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر .

هذه الصيحات المؤكدة تذكر الناس بالغاية الأولى من محياهم ، وبالمرجع الحق بعد مماتهم ، فكم ضللت البشر غايات صغيرة أركضتهم على ظهر الأرض ركض الوحوش فى البرارى ، واجتذبت انتباههم كله ، فاستغرقوا فى السعى وراء الحطام! وامتلكت عواطفهم كلها ، فالحزن يقتلهم للحرمان ، والفرح يقتلهم بالامتلاء ، ولم يسفه المرء نفسه بالغيبوبة فى هذه التوافه ؟

إن صوت الحق يستخرجه من وراء هذه الحجب المتراكمة ، ليلقى فى روعه ما كان ينساه ، وهو تكبير سيد الوجود ورب العالمين ، سيده ومولاه . . . أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله

لقد سقط الشركاء جميعا ، طالما ضرع الناس للوهم ، واعتزوا بالهباء ، وأملوا الخير فيمن لايملك لنفسه نفعا ، وانتظروا النجدة ممن لا يدفع عن نفسه عدوان ذبابة ، ولم الخبط فى هذه المتاهات ؟ إن كان المغفلون يشركون مع الله بعض خلائقه ، أو يؤلهونها دونه ، فالمسلمون لايعرفون إلا الله ربا ، ولايرون غيره موئلا .

والتوحيد المحض ، هو المنهج العتيد للغاية التى استهدفوها .

ولكن من الأسوة ؟ من الإمام فى هذه السبيل ، من الطليعة الهادية المؤنسة ؟ إن المؤذن يستتلى ليذكر الجواب :

أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله .

سيرة هذا الرجل النبيل هى المثل الكامل لكل إنسان يبغى الحياة الصحيحة ، إن محمدا إنسان ، يرسم بسنته الفاضلة السلوك الفريد لمن اعتنق الحق وعاش له .

وهو يهيب بكل ذى عقل أن يقبل على الخير ، وأن ينشط إلى مرضاة ولى أمره وولى نعمته ، فيحث الناس أولا على أداء عبادة ميسورة رقيقة .

حى على الصلاة ، حى على الصلاة .

هذه الصلوات هى لحظات التأمل فى ضجيج الدنيا . هى لحظات المآب كلما انحرف الإنسان عن الجادة . هى لحظات الخضوع لله كلما هاج بالمرء النزق ، وطغت على فكره الأثرة فنظر إلى ما حوله ، وكأنه إله صغير . هى لحظات الاستمداد والإلهام .

وما أفقر الإنسان ـ برغم غروره ـ إلى من يلهمه الرشد فلا يستحمق ، ويمده بالقوة فلا يعجز ويستكين . . . ثم يحث الناس ـ أخيرا ـ على تجنب الخيبة فى شئونهم كلها .

والخيبة إنما تكون فى الجهد الضائع سدى ، فى العمل الباطل لأنه خطأ ، سواء كان الخطأ فى الأداء ، أو فى المقصد . ... وهو يحذر من هذه الخيبة عندما يدعو : حى على الفلاح ، حى على الفلاح .

ويوم يخرج العمل من الإنسان ، وهو صحيح فى صورته ونيته ، فقد أفلح ، ولو كان من أعمال الدنيا البحتة ، ألم يعلم

الله نبيه أن يجعل شئون حياته ، بعد نسكه وصلاته خالصة لله ؟

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

(سورة الانعام)

ولا سبيل إلى ذلك الا بإصغار ما عدا الله من غايات ، والتزام توحيده أبدا ، ومن ثم يعود إلى تقرير الغاية والمنهج ، مرة أخرى .

الله أكبر الله أكبر . . .

لا إله إلا الله . . .

إن كلمات الأذان تمثل العناوين البارزة لرسالة كبيرة فى الإصلاح ، ولذلك جاء فى السنن الثابتة أن المسلم عندما يسمعها يقول :

اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته ، إنك لاتخلف الميعاد .

● ● ●

وفى يوم الفتح قد ترجع بنا الذكريات إلى رجال لم يشهدوا هذا النصر المبين ، ولم يسمعوا صوت بلال يرن فوق ظهر الكعبة بشعار التوحيد ، ولم يروا الأصنام مكبوبة على وجوهها مسواة بالرغام ، ولم يروا عبادها الأقدمين وقد ألقوا السلم واتجهوا إلى الإسلام .

إنهم قتلوا أو ماتوا إبان المعركة الطويلة ، التى نشبت بين الإيمان والكفر .

ولكن النصر الذى يجنى الأحياء ثماره اليوم لهم فيه نصيب كبير ، وجزاؤهم عليه مكفول عند من لا يظلم مثقال ذرة .

إنه ليس من الضرورى أن يشهد كل جندى النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق والباطل ، فقد يخترمه الأجل فى المراحل الأولى منه ، وقد يصرع فى هزيمة عارضة ـ كما وقع لسيد الشهداء « حمزة » ومن معه ـ .

والقرآن الكريم ينبه أصحاب الحق إلى أن المعول فى الحساب الكامل على الدار الآخرة ، لا على الدار الدنيا ، فهناك الجزاء الأوفى للمؤمنين والكافرين جميعا .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾

(سورة غافر)

ودخل رسول الله مكة فى رمضان ، وظل بها سائر الشهر يقصر ، ويفطر أكثر من خمسة عشر يوما ، وكان قد خرج من المدينة صائما ثم أفطر هو وصحبه فى الطريق .

فلما استقر الأمر ، شرع يبايع الناس على الإسلام ، فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء ، فتمت البيعة على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا .

● ● ●

وهكذا دخل أهل مكة فى الإسلام ، وإن كان بعضهم بقى على ريبته وجاهليته يتعلق بالأصنام ويستقسم بالأزلام ، وأولئك تركوا للأيام تشفى جهلهم ، وتحيى ما مات من قلوبهم وألبابهم .

ومادامت الدولة التى تحمى الوثنية وتقاتل دونها قد ذهبت ، فسوف تتلاشى هذه الخرافة من تلقاء نفسها .

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة ، ولقد أفلحت خطة المسلمين فى تعمية الأخبار على قريش حتى بوغتوا فى عقر

دارهم ، فلم يجدوا مناصا من الاستسلام ، فما استطاعوا الجلاد ولا استجلاب الأمداد ، وفتح العرب جميعا أعينهم فإذا هم أمام الأمر الواقع ، حتى خيل إليهم أن النصر معقود بألوية الإسلام فما ينفك عنها !

الفهرس

فى ضوء القرآن الكريم

□ الصيام لغة . وشرعا ٩
□ رخصة .. للمريض والمسافر ١٤
□ أول ما نزل من القرآن ٢١
□ حالة .. من حالات ثلاث ٢٥
□ جانب .. من مظاهر الرحمة ٣١
□ من أحكام الصيام ٣٧
□ اختلاف .. المطالع ٤٢
□ حكمة مشروعية الصيام ٤٧
□ الأعذار المبيحة للفطر ٥٣

فى ضوء السيرة النبوية

□ الصيام الكامل .. والمقبول ٦١
□ صيام التطوع .. أنواع ٦٦
□ صيام داود .. افضل ٧٠
□ الأيام العشر .. ما هى ٧٦
□ يوم عاشوراء .. فى الجاهلية والاسلام ٨١
□ ليس لرجب .. صيام !! ٨٤
□ يوم الجمعة .. ويوم المهرجان ٩٠
□ صيام يوم العيد .. حرام ٩٥

و فى ضوء الحديث الشريف

□ مع غزوة بدر .. لحظة بلحظة ! ١٠١
□ أبو جهل .. والعناد إلى آخر رمق !! ١١٠
□ الجوع والعرى .. عندما يطول أمدهما !! ١١٧
□ شقة العداوة تتسع . بين المسلمين واليهود ١٢٢
□ وجاء .. يوم الفتح الأعظم ١٢٥
□ النبى يخرج مطاردا .. ويعود منتصرا !! ١٣٠
□ وهكذا .. دخل أهل مكة فى الاسلام ١٣٨

رقم الايداع ٣٠٩١ / ١٩٩١
الترقيم الدولى I. S. B. N.
977 - 08 - 0110 - 0

هذا الكتاب :

الصيام ليس تعذيبا للجسد ولا تعطيلا للعمل ، ولكنه رياضة لها هدف ، وغرس يرجى له ثمار ..

إنه مشقة محدودة لتدريب الانسان على المعنويات العالية، وتعليمه كيف يفعل الخير ويدع الشر ، وكيف يحب الحسن ويكره القبيح .. أو كيف يسارع إلى مرضاة الله تعالى ويفر من مساخطه !!

إنه معركة مبهمة ضد غرائز النفس وشهوات الجسد ، ولكنه خطة واضحة لتزكية القلب ودعم الإيمان ، واحتساب التعب عند الله لا عند أحد من الناس ..

إنه فرصة تطهر أصحابها بالنهار ، كى تعدهم لاستقبال هدايات القرآن فى قيام الليل ..

وهذا النوع من التخلية ثم التحلية ـ كما يقول علماء القلوب ـ يجعل المسلم أقرب إلى رضوان الله وغفرانه ..

وهذه دراسة عن الصيام وأنواعه وأحكامه وأهم حدثين وقعا فى صدر الإسلام وفى شهر رمضان ، يضعها ثلاثة من كبار علمائنا ومفكرينا فى هذا الكتاب الذى تقدمه دار أخبار اليوم .

وهى ترجو الله أن يوفقها إلى الإسهام فى نشر الثقافة الإسلامية الرفيعة بين الجماهير العريضة التى تتطلع إلى العلم والمعرفة والنور.